

شرلوك هولمز

الكلمة المفقودة

رواية بوليسية برويها الدكتور
واطسون زميل شرلوك هولمز

تأليف

الروائي الأشهر

كونان دويل

دار المصالح

مؤلف الرواية

كان السير آرثر كونان دويل طبيبا قبل أن يصبح كاتباً ويتفرغ لتأليف الروايات البوليسية . ولعل أكثر الناس تأثراً في حياته هو الدكتور « جوزيف بل » استأذنه الذي تلقى عليه بعض فروع الطب وهو طالب ، والواقع أن هذا الاستاذ هو الذي حفزه فيما بعد الى ابتكار شخصية شرلوك هولمز ، واتباع طريقة الاستنتاج والتحليل التي امتاز بها ، وهو اذ ابتكر هذه الشخصية الروائية قد جعلها على طراز استأذنه هذا شكلاً وموضوعاً . فمن حيث الشكل كان الدكتور « بل » طويل القامة نحيل الجسم له عينان كعيني الصقر . ومن حيث الموضوع كان دقيق الملاحظة للدرجة القصوى

وقد كتب عنه كونان دويل مقالا في مجلة « ستراند » اورد فيها مثلين على قوة ملاحظته التي كان يطبقها على المرضى امام طلبته . فاما المثل الاول فيذكر كونان دويل انه قال لمريض : « اني ارى أنك مدمن السكر ، فانت تحمل زجاجة خمر في جيب سترتك الداخلى » واتضح ان الرجل كان حقا من مدمنى المسكرات . واما المثل الثاني ، فيقول كونان دويل في ذلك المقال ان استأذنه نظر الى مريض حين دخل عنده فقال له توا : « اني ارى أنك اسكاف » . ثم التفت الى طلبته وجعل بشرح لهم كيف عرف لأول وهلة صناعة ذلك الرجل ، فقد لاحظ ان موضع الركبة من بنطلونه قد بلى ، وذلك حيث يضع الاسكاف عادة الحجر الذي يشتغل عليه

ثم يقول كونان دويل : « لقد ترك هذا في نفسي أثرا كبيرا . ولم يغب الدكتور « بل » قط عن ذاكرتي بعد ذلك ، بل كنت دائما اتمثله بعيني الحادتين الغادتين ، وأنفه الذي يشبه منقار النسر ، وملاحظته التي تلفت الأنظار . وقد كان يجلس أمامنا في كرسية ضاماً أصابعه

مؤلف الرواية

كان السير آرثر كونان دويل طبيبا قبل ان يصبح كاتباً ويتفرغ لتأليف الروايات البوليسية . ولعل اكثر الناس تأثيراً في حياته هو الدكتور « جوزيف بل » استاذة الذي تلقى عليه بعض فروع الطب وهو طالب ، والواقع ان هذا الاستاذ هو الذي حفزه فيما بعد الى ابتكار شخصية شرلوك هولمز ، واتباع طريقة الاستنتاج والتحليل التي امتاز بها ، وهو اذ ابتكر هذه الشخصية الروائية قد جعلها على طراز استاذة هذا شكلاً وموضوعاً . فمن حيث الشكل كان الدكتور « بل » طويل القامة نحيل الجسم له ميثان كهني الصقر . ومن حيث الموضوع كان دقيق الملاحظة للدرجة القصوى

وقد كتب عنه كونان دويل مقالا في مجلة « ستراند » اورد فيها مليون على قوة ملاحظته التي كان يطبقها على المرضى امام طلبته . قائما المثل الاول فيذكر كونان دويل انه قال لمريض : « اني ارى اناك مدمن السمك » فانت تحمل زجاجة خمر في جيب سترتك الداخلي » وانضح ان الرجل كان حقا من مدمني السمكات . واما المثل الثاني ، فيقول كونان دويل في ذلك المقال ان استاذة نظر الى مريض حين دخل عنده فقال له توا : « اني ارى اناك اسكاف » . ثم التفت الى طلبته وجعل يشرح لهم كيف عرف الاول وهلة صناعة ذلك الرجل ، فقد لحظ ان موضع الركبة من يتلونه قد بلى ، وذلك حيث يضع الاسكاف عادة الحجر الذي يشتغل عليه

ثم يقول كونان دويل : « لقد ترك هذا في نفسي اثرا كبيرا . ولم يغيب الدكتور « بل » قط عن ذاكرتي بعد ذلك ، بل كنت دائما اتأمله بعينيه الجادتين النفاذتين ، وانفه الذي يشبه منقار النسور ، وملامحه التي تلفت الاقطار . وقد كان يجلس امامنا في كرسيه ضامها اصابعه

يده وكان حاذقا في استعمالها . وكان شقيقا بطلابه يبذل قصارى جهده لتعليمهم ، فكان لهم نعم الصديق حتى اذا تخرجت وصرت طبيبا وسافرت الى افريقيا ، كانت شخصيته البارزة وطريقته في الملاحظة والتحليل عملاً خاطري ، دون ان اتصور وقتئذ ان ذلك سوف يغريني بان اترك مهنة الطب الى كتابة الروايات البوليسية »

□

على ان السنوات التي قضاها الدكتور كونان دويل في ممارسة الطب كان لها ايضا تأثير كبير في حياته المستقبلية ، فقد عرفته بالكثير من حقائق الحياة ، وامتدته بالكثير من الذكريات والملاحظات ، واستطاع في خلالها ان يطبق طريقة استاذة القائمة على ملاحظة كثير من الناس والحوادث والأحوال . وكما ابتكر شخصية شرلوك هولمز ، استعار هو لنفسه شخصية الدكتور جون هـ . وطسن ليروي حوادث هولمز في مذكراته كما تروى في الصفحات التالية

وقد كتب الدكتور « جوزيف بل » بعد ذلك عن تلميذه الدكتور دويل في مجلة « ذي بوكمان » ، وقدم لقاله بالحديث عن أهمية قوة الملاحظة في الطب وفي الحياة ، ثم نقد روايات شرلوك هولمز وبين ميزاتها على الروايات البوليسية الأخرى التي لا تقوم على قاعدة الملاحظة والتحليل والاستنتاج ، وقد يعرف القارىء نهايتها من قراءة بدايتها . . . أو يتوه في حوادثها حتى اذا وصل الى آخرها يكون قد نسي اولها ! . وذلك على عكس روايات كونان دويل المتسلسلة الحوادث ، المتناسكة الفكرة ، القائمة على تفكير هادىء رصين ، قوامه العلم والمنطق



شخصيات الرواية

الدكتور واطسن Dr. Watson : طبيب سابق بالجيش ، جرح في ساقه ، وصديق شرلوك هولمز ورواية مغامراته

شرلوك هولمز Sherlock Holmes : عبقري اخترع طريقة الاستنتاج والملاحظة في تحقيق الجنايات ، وطل هذه المغامرة الكبرى

الآنسة مورستان Miss Morstan : ابنة ضابط سابق في الجيش الهندي ، ربيت في إنجلترا بمعهد داخل لوفاة أمها وهي صغيرة

ثادديوس شولتو Thaddeus Sholto : ابن ضابط قديم في الجيش الهندي ، وهو شاب أصم عسى ، محب للترف والفنون ، طيب القلب

بارثولوميو شولتو Bartholomew Sh. : الشقيق التوأم لثادديوس ، وهو يختلف عنه بمجه اللال ، وبغله ، وخشونة طباعه وطعمه

اليجور شولتو Major Sholto : والد التوأمين ، بجيل ، طماع ، في حياته سر خطير يعيش بسببه في رعب دائم

آثلني جونز Athelny Jones : من قوة اسكتلنديارد - مغرور بنفسه ، مغرور ، غبي ، عنيد

مسنز بيرنستون Mrs. Burnstone : مشرفة الدار التي يقيم بها بارثولوميو شولتو ، سيدة مجوز مسالمة

جونانان سمول Jonathan Small : رجل أعرج ، له ساق من الخشب ، جندي سابق في الجيش الهندي ، وحكم عليه بالسجن المؤبد في جريمة قتل ، ولكنه تمكن من الفرار

موردكاي سميث Mordacai Smith : صاحب زوارق نهرية ولنش بخارى سريع ، رجل سكير ، وبخار مغامر

علم الاستنتاج

تناول شارلوك هولمز قارورته الموهودة من ركنها المخصص لها فوق رف المدفأة الرخامي . ثم تناول محققة من الغلاف الأنيق الذي كان قطعة فاخرة من فن الحفر في الخشب . ذلك الفن الذي حذقه أهل مراکش وكان لهم فيه باع طويل وطابع قائم برأسه

وبأنامل ناصعة البياض ظاهرة الطول عصبية الاختلاج حرر الإبرة للرهفة في مكانها وثبتها ثم أماط كم قميصه عن ذراعه الأيسر . واستقرت عيناه برهة قصيرة في إمعان على ساعده ومعصمه اللذين انتشرت فوقهما آثار لاصحي من وخز ذلك المحقن . وأخيراً عرس سن الإبرة وأفرغ تحت الجلد ما في المحقن بضغطة حاسمة . وغاص بعد ذلك في مقعده للريح المكسو بالمحمل الزرکش وهو يزفر زفرة استرواح طويلة

وكنت قد ظللت طيلة شهور كثيرة أشهد هذا المنظر ثلاث مرات في كل يوم . بيد ان العادة لم تستطع أن توصل الألفة بين عقلي وبين ذلك العمل التكرار . بل اني على العكس كنت أزداد في كل يوم ضيقاً بهذا المشهد . وكان ضعيفي يتعذر في طوياني نفسي ويقرعي لأني لم أكن من الشجاعة بحيث أعترض وأحتج وكم من مرة سجلت على نفسي عهداً أن أبري ذمّي من ذلك الموضوع . ولكن ما كان يتميز به صاحبي من قلة المبالاة والمهوء والثبات في كل ما يقدم عليه ، كان يجعله آخر انسان يمكن أن يحشم للراء نفسه الاجترار عليه من قريب . وكانت قدراته العظيمة واستاذته في سلوكه وهيئته ، وما خبرته فيه من خلال ومزايا خارقة ، تجعلني أراجع كلما هممت بالاعتراض عليه أو تكديره

ومع هذا فلست أدري أي شيء في ذلك الأصيل طرأ على . أهو كئس نبيذ يون الذي احتسبته مترعاً على مائدة الغداء . أم هي الاستشارة الاضافية التي أحدثتها تصميحه التمهّل في هذه المرة . ومهما يكن من شيء فقد شعرت ان صبري فرغ ، فسألته :

— أي شيء هو اليوم ؟ أمورفين هو أم كوكايين ؟

فرجع عيني في تراخ عن الكتاب الذي كان قد فتحه بين يديه وقال :

— بل كوكايين . بنسبة ٠.٧/١٠٠٠ . محلول . أحب أن تجربه ؟

قلقت له مغياً في شيء من الحدة :

— كلا من فضلك . إن بنياني لم يتغلب على آثار الحملة الأفغانية حتى الآن .

فلا يسعني أن أزيد على حالتي توتراً اضافياً

فأدرك مراحي وابتسم ثم قال :

— ربما كنت على صواب يا وطنس . وربما أيضاً كان تأثير الكوكايين

من الوجهة البدنية سيئاً . بيد انه أصبح عادة عندي تنشط مخي . بحيث ان تأثيره الثاثوي على الجسم يبدو قليل الأهمية

فازدادت حدتي وأنا أجيبه قائلاً :

— ولكن تدبر الأمر بإشارلك ! واحسب معي العن ! ان عحك قد يتنبه

وينشط . ولكن بطريقة مرضية وبيلة يترتب عليها تغير متزايد في الأنسجة

السنجابية ربما نجحت عنه في النهاية آفات دأمة . وأنت تعلم كذلك رد الفعل

الويل الذي يجري عليك . فما من شك ان هذه اللعبة لا تكاد تساوي ما ينفق

في سبيلها من شموع تستهلك للاضاءة . فلماذا يارجل تخاطر في سبيل لذة تآبيرة

بقندان قواك العظيمة ومواهبك التي أوتيتها ؟ وتذكر اني لا أحاطبك الآن

خطاب الصديق للصديق فحسب ، بل وأيضاً خطاب رجل الطب لرجل يعتبر

نفسه مسئولاً عن صحة بنيتي الى حدما

فلم يظهر عليه ما يدل على الاستياء . بل على العكس رأيت أطراف أنامله

تتلاقى ثم مال فوق ذراعي مقعده شأن من طابيت نفسه وهشت لشجون

الأحاديث . ثم قال :

فاحتججت عليه مستكراً بقولي .

— ولكن القضية كان من عناصرها الجانب العاطفي فعلا . ولم يكن في

وسعي أن أعبت بالوقائع

— بل ان بعض الوقائع يجب أن يضرب عنه صفحاً . بل على الأقل

لا تطغى له كل تلك الأهمية . لأن العنصر الوحيد من عناصر تلك القضية

الذي كان ينبغي أن يوجه إليه الاهتمام كله هو عنصر الاستدلال التحليلي

للاتتقال من النتائج إلى أسبابها . وهذا هو قوام المنهج الذي نتجت في الوصول

به إلى جلاء غوامض القضية

فضابقي منه ذلك النقد القاسي لعمل تجسسته في سبيل إدخال السرور على

نفسه خاصة . واعترف أيضاً أنني استأت لأنابته التي سولت له أن يطالب بأن

تكون كل سطور كتابي وفقاً على أعماله الخاصة . والحقيقة أنني لاحظت أكثر

من مرة خلال السنوات الطويلة التي عشت فيها معه بشارع يكر أن شيئاً من

الغرور يكمن وراء مظهر صاحبي الهادئ النطق

وعلى كل حال لم أشأ أن أعقب وجلست أدلك ساق التي كانت قد أصيبت

برصاصة منذ مدة وأنا في بلاد الأفغان ولئن لم يمتني الجرح من المشي إلا أنه

كان يؤلني كثيراً عند كل تغير من تغيرات الطقس . وبعد برهة قال هولمز

وهو يحشو غلبونه العتيق :

— لقد اتسع ميداني في اللمدة الأخيرة حتى عبر المائش الى القارة الأوروبية .

إذ استشارني في الأسبوع الماضي فرنسوا لي فيرار الذي أصبح كما قد تعلم في

مقدمة رجال الضبطية السرية في فرنسا أخيراً . وهو يتمتع بكل مزايا العنصر

الكلتي التي أهمها سرعة البديهة . ولكن ينقصه اتساع دائرة المعلومات الدقيقة

العلمية التي لا بد منها في الدرجات العليا من هذا الفن . وكانت القضية التي

استشارني فيها تتصل بوصية . وكانت لا تخلو من بعض جوانب التشويق .

وقد أفلحت في هدايته للأجاء الذي قاده الى الحل الصحيح . وهالك الخطاب

الذي تلقيته منه هذا الصباح يشكرني فيه ويعترف بقيمة معرفتي

ثم تذف نحوي بالخطاب . فألقيت عليه نظرة . ووجدته طامحاً بمباراة

الثناء العاطر التي تدل على الإعجاب الحماسي . قلقت له :

— ان عقلي يتعذر على الركون . أعطني مشكلات . أعطني عملاً . أعطني

أعضل الألغاز وأغمض عمليات التحليل . تجديني عندئذ في معدني الطبيعي .

وفي هذه الحالة أستطيع أن أستغني عن الثريات الصناعية . أما روتين للعيشة

الرتيب المألوف السمج فاني أشرف منه وأمقته . لأني أتوق الى التوثب العقلي .

وهذا هو السر الذي دفعني أن أختار لنفسني مهنة الخاصة في وحدتي . وبهارة

أدق أن أخلقها وأبتكرها ابتكاراً . لأني كما تعلم الوحيد الذي يمارسها في العالم

قلقت له وأنا أرفع حاجي بشيء من الدهشة :

— أنت الخبير السري غير الرسمي الوحيد ؟

فأوما برأسه مؤكداً ثم استطرذ :

— أنا الخبير السري غير الرسمي الاستشاري الوحيد في العالم . لأني آخر

وأعلى حكمة استثنائية في كل ما يتصل بكشف غوامض الجرائم . فحينما تفرغ

حيلة جرميون أولسترد أو أتلي جونس - وذلك على فكرة ما يحدث لهم

في العادة باستمرار - يطرحون الموضوع أمامي . فأفحص الوقائع فخص الحخير .

ثم أصدر قرار الأخصائي الأخير . وفي هذه الأحوال لا أطلب بنسبة الفوز

إلى نفسي . ولا يظهر اسمي على صفحات الجرائد . فالعمل في حد ذاته ، ولذة

العثور على ميدان المواهي الفريدة هو اسمي ثواب أطمع إليه . وقد شهدت

أنت بنفسك طرفاً من وسائل ومنهجي في العمل حينما عالجت قضية جيفرسون هوب

فنسيت حدتي عند ذكر تلك القضية وقلت بحماسة :

— أجل . ولم أذهل لشيء كما ذهلت عندئذ . بل إنني لفرط إعجابي بذلك

المنهج سجلته في كراسة صغيرة تحت عنوان « دراسة في الجريمة » . وهو

عنوان براق بعض الشيء

فهز شارلوك رأسه في أسى وقال :

— لقد أقيمت عليها نظرة . وأنا بصراحة لا يسعني أن أهنتك بها . فن

الاستنتاج في كشف الجرائم ينبغي أن يكون علماً من العلوم المضبوطة . وينبغي

أن يبالغ بالتفكير الهادئ المجرد من العواطف . أما أنت فقد حاولت أن

تشوبه بالحيل الروائي . فكانت نتيجة ذلك أشبه شيء بادخالك قصة غرام في

برهان النظرية الخامسة من نظريات أقليدس الهندسية

— انه يخاطبك خطاب التلميذ لأستاذه

— ربما كان يبالغ في مدى مساعدتي له بعض الشيء . فهو في الحقيقة يتمتع بمزايا لا يستهان بها . بل إنه على التحقيق حائز لصفتين من الصفات الثلاث الضرورية لتكوين المحرر السرى النموذجي

— وما هي هذه الصفات الثلاث ؟

— انها المعرفة الدقيقة المستفيضة . وقوة الملاحظة . وقوة الاستنتاج . فأما هو فإديه قوة الملاحظة وقوة الاستنتاج . وينقصه المزيد من المعرفة . وذلك نقص يمكن تلافيه مع مرور الوقت . وهو في الوقت الحاضر معنى بترجمة مؤلفاتي الصغيرة الى اللغة الفرنسية

— مؤلفاتك الصغيرة ؟

— فقهه شارلوك هولمز وقال ضاحكاً :

— ألم تكن تعلم بوجودها ؟ أجل أنا المسئول عن بضعة كتيبات كلها في موضوعات فنية . فهذا مثلاً كتاب عن طرق التمييز بين رماد أنواع الطباقي المختلفة . وفي هذا الكتاب أعداد مائة وأربعين نوعاً من طباق العليون والسجائر والسيجار . مع رسوم ملونة توضح الفروق بين رمادها . وتلك مسألة مهمة تبرز في معظم القضايا الجنائية وربما كانت خطأها ما يؤدي الى كشف الغوامض كلها . وإن عين الحبير تستطيع أن تجد من الفرق بين نوعين مختلطان على الشخص العادي من رماد السجائر ، مثل الذي تجده أنت من الفرق بين البطاطس والكربن !

— ان لك موهبة خارقة في تمييز الفروق الدقيقة

— ان الفروق الدقيقة هي دائماً أهم الفروق . وهاك كتاباً آخر عن اقتفاء الأثر كما يعرفه أعراب البادية . وكتاباً ثالثاً عن تأثير مهنة الشخص في كفه يده مع لوحات توضيحية ملونة لأبأدى البحارة والنساجين وصاقل الجواهر ومؤلفي الألحان

— هذه ولاشك أشياء مفيدة جداً . ولكنك ذكرت الآن قوة الملاحظة وقوة الاستنتاج على أهمها شيئان مختلفان . مع أن إحداها تشمل الأخرى أو تفضي اليها بالضرورة

— فاضطجع شارلوك هولمز في مقعده وراح يرسل حلقات كشيعة من غليونه بعض الوقت . ثم أبعث الغليون عن فمه وقال بثوثة :

— بل هما مختلفان جداً . فالملاحظة مثلاً تدلني على أنك ذهبت هذا الصباح إلى مكتب البريد الذي في شارع ويمجور . ولكن الاستنتاج وحده هو الذي يدلني على أنك كنت هناك لترسل برقية !

— فحملت ثم صرخت متعجباً :

— مضبوط ! أصبت في السائلين جميعاً ! ولكني أعترف لك أنني لا أدري كيف وصلت إلى النتيجة . فقد ذهبت إلى هناك بناء على خاطرة مفاجئة ولم أبع بضمونها لأي إنسان

— فحمل شارلوك ضحك من دهشتي ثم قال :

— المسألة في غاية البساطة . بل إنها من البدهة بحيث يبدو كل توضيح لها فضولاً لا لزوم له . إلا أن التوضيح قد يعين على تعيين الحدود التي تفرق بين قوة الملاحظة وقوة الاستنتاج . فالملاحظة تدلني على أن نعل حدائك فيه شيء من الطين المحمر . وأمام مكتب بريد شارع ويمجور مباشرة يقوم عمال التنظيم في الوقت الحاضر برفع أحجار الرصف ، فانتثر شيء من التربة السفلية أمام مكتب البريد بحيث لا يمكن أن يتحاشى الداخلون المرور فوقه . والتربة هناك لها هذا اللون المحمر الذي لا يوجد فيما أعلم في أي موضع آخر من المنطقة . إلى هنا والمسألة كلها تقوم على الملاحظة . أما الباقي فهو من عمل الاستنتاج

— تعني البرقية . فكيف استنتجتها ؟

— لقد كنت جالساً أمامك طول الصباح فلم أرك تكتب خطاباً . وأعلم أيضاً أن فوق مكتبك دفتر طوابع بريد . فما الذي يجعلك تذهب إلى مكتب البريد اللهم إلا إن كنت تنوي إرسال برقية ؟ استبعد جميع العناصر التي تنافي المقول فيكون العنصر المتبقي هو الصواب

— فأطرقت أفكر برهة ثم قلت :

— هذه هي الحقيقة فعلاً . لقد بدت كما قلت غاية في البساطة . ولكن هل تجد من التبجح أن أعرض نظرياتك لامتحان أدق ؟

— بالعكس . فقد يمنعني ذلك من تعاطي جرعة أخرى من الكوكايين . وسيكون من دواعي سروري أن أنظر في أي معضلة يخطر لك أن تضعها أمامي الآن

— لقد سمعتك تقول إنه من الصعب أن يستعمل شخص أداة استعمالاً يومياً من غير أن يترك عليها أثره الشخصي بحيث يستطيع الملاحظ المدرب أن يقرأ هذا الطابع قراءة واضحة . ومعنى الآن ساعة صارت إلى حوزتي أخيراً . فهل لك أن تتفضل فتدلي برأيك عن طابع وعادات مالكيها السابق ؟

— وقدمت اليه الساعة وأنا أغلب شعوري بالتحدى لأن هذا الاختيار كان يبدو لي معجزاً . وكنت أتوقع أن يكون ذلك درساً لهولمز يخفف من اعتزازه التقريري بنفسه

— ورأيت زين الساعة في يده ، ثم ينظر إلى البناء نظرة مدققة ، ثم يفتح ظهرها ويفحص داخلها بعينه المجردة أولاً ثم بعدسة قوية . ولم أتمكن من كتمان الابتسام عندما ظهرت على وجهه أمارات خيبة الأمل وهو يفلق غلاف الساعة ويعيدها إلى . ثم لم يلبث أن قال :

— لا تكاد توجد بها عناصر هادية . لأن الساعة مسحت أخيراً . فسلبني هذا المسح أمن أدلتي

— هذا صحيح . لقد مسحها قبل أن يرسلوها إلى

ولكني في الوس اتهمت صاحبي بيني وبين نفسي أنه تدرج بهذا العذر الأعرج كي يغطي فشله . فأى أدلة يمكن أن يتوقعها الانسان من ساعة لم تمسح ؟

— وقطع على أفكارى صوت شارلوك هولمز وقد رفع رأسه إلى السقف يجيل فيه نظرات حاملة خبا بريقها

— ومع هذا فان خصي لم يكن عمياً تماماً وإن لم أخرج بكل ما كنت أنشده . فأنا مثلاً أرجح أن هذه الساعة كانت في حوزة أخيك الأكبر الذي كان قد ورثها عن والدك

— لا شك أنك عرفت ذلك من حرفي ه . و . الذين على ظهرها ؟

— فلا . فحرف الواو يشير إلى اسمك . والتاريخ المحفور تحت الاسم يرجع الى نحو خمسين سنة مضت . إذن فقد صنعت هذه الساعة لواحد من أبناء الجيل الماضي . ولما كانت المجوهرات تنتقل عادة إلى الابن الأكبر الذي يحمل في الغالب نفس اسم والده . ولما كان والدك كما أذكر مات منذ سنوات كثيرة . فلا بد أنها إذن كانت في حوزة أخيك الأكبر في المدة التي انقضت من وفاة أبيك الى الآن

— كل هذا صحيح . هل من شيء آخر ؟

— نعم ، وأخوك الأكبر كان إنساناً مهملاً غير دقيق . وقد ورث تركة طيبة ولكنه أساء التصرف . فعاش في فترات من الفقر تتخللها نوبات من الرخاء . وأخيراً أفرط في شرب الخمر الى أن مات . وأخشى أن يكون هذا لشديد الأسف كل ما استطعت جمعه من معلومات !

— فقفرت من مقعدي ورحت أعرج جيئة وذهاباً في الحجره بصبرناقد وقد امتلاً صدرى بالمرارة والسخط . ثم قلت بنضب :

— هذا لا يليق بك يا هولمز . وما كنت أظن بك أنك تتحدر الى هذا المستوى ، لقد تسقطت الأخبار عن تاريخ أخي المنكود ثم تأتي لتزعم لي أنك استنتجت معلوماتك بطريقتك الخرافية . ولا أظنك تتوقع مني أن أصدق ما تزعمه من أنك قرأت هذا كله في هذه الساعة القديمة وهي ممسوحة ! إن هذا كان قسوة منك . بل إنه بصراحة شعوة ودجل

— فلم ير شارلوك هولمز . بل قال بكل رقة :

— أرجو يا عزيزي الدكتور أن تتبيل اعتدادي كاملاً . فقد نظرت الى الموضوع على أنه مشكلة عقلية مجردة . ونسيت إلى أي مدى يمكن أن يكون هذا الموضوع الشخصي مؤلماً لك . وأنا أو كبدك لمع ذلك أنني لم أكن أعلم من قبل مجرد أن لك أختاً إلى أن أعطيتني هذه الساعة

— اذن كيف . بحق كل ما هو مدهش . استطعت أن تصل إلى هذه الحقائق ؟ فهي صحيحة على الاطلاق في جميع التفاصيل

— هذا من توفيق الحظ . لأنني لم أكن واثقاً بل كنت أرجح فحسب . ولم أكن أتوقع إصابة كبد الحقيقة بخدافيرها

— إذن لم يكن الأمر مجرد تخمين ؟

— كلا كلا . فأنا لا أؤمن أبداً . فالتخمين عادة سيئة تهدم الموهبة المنطقية وما يبدو لك غريباً إما سببه كونك لا تتبع خطواتي في التفكير أولاً تلاحظ الظواهر الكثيرة التي يمكن أن يتوقف عليها الكثير جداً من الاستنتاجات . فأنا مثلاً بدأت الكلام بوصف أخيك أنه مهمل . وإذا أنت لاحظت الجزء الأسفل من مظهر الساعة لوجدته معطوباً في موضعين . ومخدوشاً في جميع المواضع . مما يدل على أن صاحب الساعة تعود أن يضع معها في جيب صدر وأحد أشياء صلبة كالنقود الفضية والمفاتيح . ولا شك أنه لا حاجة بالإنسان إلى فطنة شديدة كي يستنتج أن الشخص الذي يعامل ساعة مينة قيمتها أكثر من خمسين جنيهاً ذهبياً مثل هذه المعاملة الحشنة لابد أن يكون إنساناً مهملًا . وكذلك ليس من الصعوبة بمكان أن نستنتج أن الشخص الذي يرث شيئاً مينةً كهذا لابد أن يرث معه تركة محترمة فأومأت برأسى تأمينةً على كلامه فاستطرد :

— ومن عادة أصحاب محلات الرهون في إنجلترا حين ترهن لديهم ساعة أن يخضروا رقم إذن الرهن بطرف دُبوس في الوجه الداخلي لمظروفها . حتى لا تضيع نمرة الرهن لو كنت على ورقة مثلاً . ولا يوجد أقل من أربعة أرقام ظهرت لعدستي يباطن مظروف هذه الساعة . فدلتني هذا على أن أخاك كثيراً ما مر بفترات ضنك وضيق . وبالتالي أن هذه الفترات كانت تتخللها فترات رخاء . وإلا لما تمكن من استردادها من يد الزاهنين أربع مرات — هذا صحيح إلى أبعد حد

— وأخيراً أطلب منك أن تنظر في القرص الداخلي الذي به ثقب مفتاح الساعة . وسترى آلاف الحدوش حول ثقب المفتاح مما يدل على أن صاحبها كان يخطيء ويتعثّر حين يضع المفتاح . وقل لي برك أي رجل مفيق يمكن أن يجدد بمفتاح ساعته هذه الحدوش ؟ أما السكرير المدمن فلا ترى ساعته إلا وفيها مثل هذه الآثار . لأن الساعة تملأ في الليل قبل النوم . فيترك فيها أثر يده المرتعدة . فهل بقي بعد هذا لغز غامض في جوانب المسألة ؟ — بل إنها تبدو واضحة كبليج الصبح . وإني آسف لما رميتك به . وكان

ينبغي أن يكون عندي من الثقة بموهبتك الحارقة أكثر من ذلك . وأحب أن أسألك إن كانت لديك أمجاث في الوقت الحاضر — كلا . ولهذا أستمع بالكوكابين لأنني لا أستطيع أن أعيش من غير شاغل يشغل دماغى . لأى شيء غير التفكير يمكن أن أعيش ؟ انظر من هذه النافذة وخبرني أى جمال في هذا العالم يجب علينا الحياة فيه ؟ ما قيمة المواهب إن لم نستطع استخدامها ؟

وفتحت في لأجيبه معترضاً . لولا أن مالكة البيت دخلت علينا وفي يدها بطاقة فوق طبق من الفضة قدمتها لصاحي — انها سيده صغيرة السن تسأل عنك يا سيدي



الفصل الثاني

وقائع القضية

تناول شارلوك هولمز البطاقة ونظر فيها ملياً ثم قال :

— الآنسة ماري مورستان . لا أذكر أحداً بهذا الاسم . اطلي من السيدة الشابة أن تصعد بامسر هدسون . كلا لا تصرف يا دكتور . بل أفضل أن تبقى

و دخلت الآنسة مورستان الحجرية بخطوة ثابتة وصدر مرتفع . وكانت شابة شقراء قصيرة القامة دقيقة الملامح ترتدى قفازاً فاخراً وثيابها تنم عن أم ذوق . ومع هذا فكان لباسها من البساطة والخالو من الزخارف بحيث يدل على أن مواردها محدودة . وأما قبعتها فكانت عمامة من قماش ثوبها الشمشى اللون ولا تزينها إلا ريشة بيضاء صغيرة على أحد الجانبين

وعند ما دقت فها النظر وجدت ملامحها غير متناسقة كل التناسق . واكتشفت أن لونها حائل بعض الشيء . بيد أن تعبير وجهها في مجموعه . كان عذباً محبباً إلى النفس . كما أن عينيها الزرقاوين الكبيرتين كانتا على درجة كبيرة من الظرف والجاذبية والذكاء

ووحى من خبرتي في النساء التي تمتد إلى أمم كثيرة وإلى ثلاث قارات بأكلاها ، أستطيع أن أقول إنني لم أر في حياتي كهذا الوجه وجهاً تستريح إليه النفس ويشر بطبيعة حساسة مرهفة

والحقيقة أنه لم يكن لي مناص من ملاحظة ذلك كله لأنها جلست في القعد المواجه لي الذي عينتها شارلوك هولمز . فاستقرت فيه وشفتها وترعدان وبدها تحتلج مما دلنا على اضطراب داخلي عميق

وبعد أن صممت قليلاً قالت لشارلوك هولمز :

— لقد أتيت اليك بامستر هولمز لأنك يوماً ما ساعدت مخدومي مسز سيدل فورستر على الخروج من مأزق عائلي . وقد تركت رقتك وبراعتك في نفسها أجمل الأثر

فقطب شارلوك هولمز جيبه متفكراً ثم قال :

— مسز سيدل فورستر ؟ أظنني قمت لها بخدمة هينة فها مضى . ولكن قضيتها على كل حال كانت فها أذكر يسيرة جداً لم أجد فيها مشقة — انها لا ترى هذا الرأي . ولكنك على كل حال لا تستطيع أن تصف قضيتي بما وصفت به قضيتها من السهولة . فأنا لا أكاد أتصور شيئاً أصعب منها ولا أشد استغلاً على الفهم . ولا أخال موقفي أعزل من موقفها ، وإن كنت لا أظن موقفاً آخر أعزل من موقفي

فقر لك هولمز يديه وومضت عيناه . ثم مال إلى الأمام في مقعده وقد اكتسب وجهه بالاهتمام الحارق حتى كأنه الصقر . ثم قال بلهجة مهينة حاسمة :

— اعرضي وقائع قضيتك

فشعرت أن وضعي غير مناسب ، وقلت وأنا أنهض من مقعدي :

— لا شك انك تأذنان لي في الانسحاب

ولدهشني انشديدة رفعت السيدة يدها التي يكسوها القفاز لتمعني من الانصراف وقالت بلهفة :

— إذا تفضلت . صدقتك بالبقاء ربما أدى لي خدمة لا تقدر

فلم يسعني إلا أن أهبط في مقعدي . واستطردت هي تروي قصتها :

— الوقائع بايجاز كما يأتي . كان والدي ضابطاً في إحدى فرق الجيش الهندي . وقد أرسلني إلى الوطن وأنا بعد طفلة صغيرة . وكانت والدي قد ماتت وليس لي أقارب في إنجلترا . فوضعت في معهد داخلي مريح بمدينة أدنبره . وظللت هناك إلى أن بلغت السابعة عشرة من عمري ، وفي سنة ١٨٧٨ حصل والدي الذي كان كبير ضباط فرقه على اجازة مقدارها اثني عشر شهراً وعاد إلى الوطن . وأرسل لي برقية من لندن يخبرني بوصوله سالماً . وبأمرني أن أحضر من أدنبره فوراً لأقابله في فندق لأجهم في لندن حيث نزل . وكانت رسالته فها أذكر حافلة بالحنان والحب

وبعد أن مسحت عينها بمندبل صغير ونحن صامتان استأنفت الحديث :
— ولما وصلت لندن ركبت عربة الى فندق لانجهام . فأخبروني هناك ان الكابتن مورستان ينزل عندهم فعلا . ولكنه خرج في الليلة السابقة ولم يعد . فلبثت طول النهار أتتطره في الفندق على غير طائل . حتى أقبلت المساء فصحني مدير الفندق أن أتصل بالبوليس . وفي اليوم التالي نشرت اعلانياً في جميع الصحف . بيد ان الجهود والاستعلامات كلها لم تصل بنا الى نتيجة . ومنذ ذلك اليوم حتى يومنا هذا لم أسمع كلمة واحدة عن والدى المنكود . الذي جاء الى الوطن بملأ قلبه الأمل في أن يجد شيئاً من الراحة والدعة فاذا به ...
ثم رفعت يدها الى حلقها لأن نجحها قطع عليها عبارتها . وعندئذ فصح هولمز دفتر مذكراته وسألها :

— ما هو التاريخ من فضلك بالضبط ؟

— لقد اختفى في اليوم الثالث من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٨ . أي منذ نحو عشر سنوات
— وحقائبه ؟ ...

— بقيت في الفندق فلم يكن فيها ما يهدينا الى شيء . فكل محتوياتها عبارة عن بعض الثياب ، وبعض الكتب ، وعدد كبير من الطرف جلها من جزائر أندمان . لأنه كان من ضمن الضباط الشرعيين على حراسة المساجين هناك . لأن هذه الجزائر هي السجن المؤبد في الهند
— وهل كان له أصدقاء في لندن ؟

— صديق واحد فيما أعلم . هو اليجور شولتو . الذي كان زميله في الفرقة نفسها . وهي الفرقة ٣٤ مشاة بومباي . وقد تقاعد اليجور قبل ذلك التاريخ بمدة وأقام في نورود العليا . واتصلنا به طبعاً ، ولكنه لم يكن يدري مجرد وجود أخيه في السلاح في بريطانيا
— قضية غريبة فعلاً ...

— ولكني لم أذكر لك أغرب ما فيها يامستر هولمز . فبند نحو ست سنوات ، أو بالضبط في اليوم الرابع من شهر مايو سنة ١٨٨٢ ظهر في صحيفة التساعس اعلان غفل من التوقيع يسأل عن عنوان الأنة ماري مورستان

ويؤكد ان إظهار عنوانها سترتب عليه فائدة لها . وترددت لأن الاعلان لا يعمل تويقاً أو عنواناً . وكنت حديثة عهد بالاتحاق بأسرة مسز سيسل فورستر في وظيفة مربية . فأشارت على أن أنشر عنواني في عمود الاعلانات الصغيرة . وفي عصر يوم ظهور الاعلان الذي يتضمن عنواني وصلني بالبريد صندوق صغير فتحته لأجد بداخله لؤلؤة كبيرة الحجم جداً باهرة الضياء . ولم أجد مع اللؤلؤة كلمة واحدة
— عجباً ! ...

— وأعجب من هذا أيضاً انه في نفس ذلك اليوم من كل سنة بعد ذلك كنت أتلقي صندوقاً شبيهاً بذلك الصندوق به لؤلؤة شبيهة بتلك اللؤلؤة وليس معها أي دليل يهديني الى من أرسلها . وقد عرضت اللؤلؤة على خبير فأفتني انها من نوع نادر وذات قيمة هائلة . وتستطيع أن تحمك بنفسك يامستر هولمز على مبلغ روعتها

ثم فتحت صندوقاً مستطيلاً وأرتني كما أرت هولمز ستاً من أشهر اللؤلؤة التي التي وقعت عليها عيناي . فقال شارلوك هولمز :

— انها وقائع تسترعى الاهتمام الى أقصى حد . هل حدث لك شيء آخر ؟
— نعم . وفي يومنا هذا بالذات . ولذلك جئت اليك . ففي هذا الصباح تسلمت هذا الخطاب الذي قد تستطيع أن تقرأه بنفسك

— شكرآ لك . والمظروف أيضاً من فضلك . ان خاتم البريد يدل على انه صادر من جنوب غرب لندن في ٧ يوليو . وعلى المظروف بصمة في الركن ربما كانت بصمة يد ساعي البريد . والورق من أرقى نوع مما يدل على ان مرسل الخطاب متأنق في أدواته الكتابية . ولكنه لا يحمل عنواناً خاصاً . ونص السطور « كوني عند العمود الثالث من جهة اليسار خارج مسرح الشيوم هذا المساء في الساعة تماماً . إن لم تكن مطمئنة احضري معك صديقين . فأنت امرأة مغبونة محبي عليها وستنصف لك . لا تحضري البوليس . فانك إن فعلت ضاع كل شيء — صديقك المجهول » ... الحقيقة يا آنسة ان هذا لغز ظريف للغاية ! وماذا في نيتك أن تصغي يا آنسة مورستان ؟

— هذا بالضبط هو السؤال الذي أريد أن أوجه اليك !
— مادمت سألتني رأيي فسندهب بكل تأكيد . أنت وأنا والدكتور

وكان هولمز قد أشعل غليونه ثانية واضطجع في القعد وأرخى عينيه . فقال بتراح شديد :

— أحقاً ؟ اني لم ألاحظ ذلك

فصحبت به محققاً :

— ما أنت في الحقيقة إلا انسان ميكانيكي . آلة حاسبة ! ان فيك شيئاً لا انسانياً في بعض الأوقات
فابتسم برفق وقال بهدوء :

— من الأهمية بمكان ألا تسمح لتفكيرك بالانحراف بتأثير الصفات والعوامل العاطفية . فالزبون أو الزبونة في نظري مجرد وحدة أو عنصر في مشكلة ليس إلا . إن العواطف العاطفية عدو لدود للتفكير الواضح المستقيم . وأؤكد لك ان أشد النساء اللواتي عرفتهن سحراً وفتنة لقيت خفتها شقاً لأنها كانت قد قتلت بالسلم ثلاثة أطفال صفاركي تحصل على أموال التأمين على حياتهم . وفي الوقت نفسه أقبح انسان رأيته خلقه رجل من كبار المحسنين أنفق قرابة المليون لتحسين مستوى العيشة بين قراء لندن وطبقها العاملة
— ولكن في حالتنا هذه !؟

— أعرف ماذا تريد أن تقول . ولكني لست مستعداً ان أسمع في منهجي العقلي بأي استثناء . فالاستثناء يحطم القواعد . وأحسن من هذا أن تبدأ في تحضير الحل المناسب لقضيتنا . قل لي هل تعرف شيئاً عن الفراسة ودلالة الحطوط على الطباع ؟ ما رأيك في خط هذا الشخص ؟

— إنه واضح ومنظم . وذلك يدل على جد وقوة في الشخصية
فهز هولمز رأسه معترضاً وقال :

— انظر الى الحروف الطويلة مثل حرف اللام والكاف . انها لا ترتفع كما ينبغي عن مستوى الحروف المنخفضة مثل الباء والتون . وبذلك يصعب التفريق لأول وهلة . أما ذوو الطباع القوية فيفترقون بين الحروف الطويلة والمنخفضة مهما كان خطهم رديئاً . والآن أتركك وأخرج قليلاً لأن هناك بعض عناصر أحب أن أراجعها في المكتبة العامة . وأوصيك بقراءة هذا الكتاب الذي كان في يدي . فهو من خير ماسطرته الأعلام وعنوانه « استمشاد الانسان » فاقرا فيه الى أن أرجع بعد ساعة

وطسن . فالخطاب يقول انه مسموح لك بصديقين . ونحن سبق لنا ان عملنا معاً في بعض القضايا

— لهذا كنت حريصة أن يبق . ولكن هل يقبل الذهب معنا ؟

وكان في صوتها ومحامها من الضراعة والوداعة ما أثار نحوئي فقلت :

— من دواعي غفري وسروري أن أقوم لك بأى خدمة يا آنسة

— كلا كما آية في التلطف والعطف . فقد قضيت عمري بمعمل عن الناس وليس لي أصدقاء ألبأ بهم . والآن أنصرف . وأظن اني لا أكون متأخرة إذا حضرت هنا في الساعة السادسة

— يجب ألا تتأخرى عن السادسة . ولكن هناك نقطة أخرى أحب أن أستوضحك إيها . هل هذا الخط هو الخط نفسه الذي كتبت به عناوين الصناديق التي وصلتك بالبريد وبداخلها اللؤلؤة ؟

— كل هذه العناوين معي هنا

ثم أخرجت ستقصاصات من الورق تناولها هولمز وبسطها فوق المكتب :
ثم راح يلقى عليها على التوالي نظرات فاحصة

— إنك في الحقيقة زبونة نموذجية وتمتعين بفضة سديدة . ومن الواضح ان الكاتب يغير خطه عمداً في تلك العناوين . ماعدا الخطاب . ومع هذا فلا يمكن أن يكون هناك شك لدى الخبير في ان كاتبها جميعاً واحد . وأحب أن أسألك يا آنسة مورستان هل هناك أدنى شبه بين هذا الخط وخط والدك ؟ مع احتفاظي برأيي في الموضوع

— ليس هناك خط أجد شهاً عن خط والدى من هذا الخط

— كنت أتوقع أن أسمع منك هذا الجواب . وستنظر قدمك في السادسة . وسأحفظ بالأوراق لأنني قد أنظر فيها في تلك اللدة . والى اللقاء

وبابتسامة رشيقة وضيفة أعادت صندوق اللؤلؤة الى صدرها ثم أسرعت بالانصراف . ووقفت أنا وراء ستار النافذة أرقب خطوطها السريعة في الشارع الى أن اختفت ريشة قبعتها البيضاء في زحام الناس ثم استدرت الى صاحي وقلت له :

— يالها من امرأة جذابة جداً

وجلس بجانب النافذة والكتاب في يدي . بيد ان أفكاري كانت بعيدة كل البعد عن خطرات ذلك المؤلف الجريء . كان تقلى مشغولاً بزائرنا . فرحت آخيلها وهي تمشي . وأتملتها وهي تبسم ابتسامتها الوضيئة الوداعة . ويرن في أذني نغم صوتها العميق الغني . وتثير خاطري بلغز حياتها الغامض أنها تقول انها كانت في السابعة عشرة عند ما اختفى والدها منذ عشر سنين . ومعنى هذا انها الآن في السابعة والعشرين

سن مناسبة بديعة لعمرى ! يكون فيها الشباب قد قد رعوته وفاء الى شيء من التجربة وإدراك طعوم الحياة على حقيقتها !

وعلى هذا النحو جلست أسرح مخواطري . الى أن راودتني فكرة أشفقت منها فانتفضت واقفاً لأشغل نفسي بقراءة أحدث كتيبي الطبية . فمن أنا ؟ انى لست إلا جراحاً سابقاً في الجيش مهيمض الساق أخرج للشية حين تشتد الرطوبة . ورصيدى في البنك أشد عرجاً من ساقى ! فأى حق لي أن أفكر في شيء من هذا القليل ؟

لقد صدق هولمز . ينبغي أن تظل الآنسة مورستان عنصرًا مجرداً في مشكلة . ولئن كان مستقبل حالكا فمن الخير أن أواجهه وحدي في رجولة ولا أحلم بتبديد ظلماته بأمال وهمية



الفصل الثالث

وراء الحل

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة بثلاثين دقيقة حينما عاد هولمز . ولاحظت أنه كان مشرقاً منشرحاً . وهي حالة كانت تتناوب حيناً لا يكون تحت وطأة الوجوم والأكتئاب . فصببت له فنجاناً من الشاي ، تناولوه وقال لي :

— ليس في هذا الشأن غموض كبير . فالوقائع يبدو لي أنها لا تسمح إلا بتفسير واحد فقط

— ماذا ؟ هل حللت اللغز حقاً ؟
— ربما كان في ذلك تجاوز للواقع . فكل ما هناك أنني اكتشفت طريقاً واضحاً للعمل . واضحاً جداً . ولكن تنقص سائر التفاصيل . فقد راجعت الصفحات الأخيرة من مجموعة جريدة التاميس ، فوجدت أن الميجور شولتو القاطن في نورود العليا والضابط السابق في الفرقة الرابعة والثلاثين من مشاة بومباي انتقل إلى رحمة الله في ٢٨ من ابريل سنة ١٨٨٢

— ربما كانت لهذا أهميته الكبرى يا هولمز . ولكني لا أستطيع أن أتبين وجه تلك الأهمية
— حقاً ؟ إنك تدهشني . انظر إلى الموضوع من هذه الزاوية . لقد اختفى الكابتن مورستان . والشخص الوحيد في لندن الذي كان يمكن له أن يذهب لزيارته هو الميجور شولتو . والميجور شولتو أنكر مجرد علمه بوجود الكابتن مورستان في لندن . وبعد أربع سنوات مات شولتو . وإذا راجعت تاريخ موته بالضبط وجدت أنه بعد ذلك التاريخ بأسبوع تلقت الابنة الوحيدة للكابتن مورستان هدية تيمنة ظلت تتكرر سنة بعد سنة إلى أن أتتني

الأمر بهذه الرسالة التي تصفها بأنها امرأة معبونة مجنى عليها . فأى غبن يمكن أن تشير إليه الرسالة اللهم إلا حرمانها من والدها ؟ ولماذا لم تبدأ هذه السلسلة من الهدايا إلا بعد وفاة شولتو مباشرة . إلا إذا كان وريث شولتو يعلم شيئاً عن هذا اللغز - لغز اختفاء مورستان - ويريد أن يعوض الفتاة عن ذلك ؟ وحمق هولمز في وجهي ملياً قيل أن يسألني بتحد :

— هل لديك نظرية أخرى يمكن أن تفسر هذه الوقائع ؟

— ولكن يا له من تعويض غريب ! وما يحجب الطريقة التي يؤدي بها ! ولكن خبرني لماذا يكتب خطاب اليوم ولم يكتبه منذ ست سنوات ؟ ثم إن الخطاب يتحدث أيضاً عن انصافها . وأى انصاف يمكن أن تحصل عليه ؟ من التعسف أن نفترض أن الوالد ما زال على قيد الحياة . وليس هناك غبن في موضوعها سوى اختفاء والدها فيما نعلم
فهب شارلوك هولمز رأسه متفكراً ثم قال :

— هناك صعوبات . هذا مؤكد . ولكن رحلتنا التي سنقوم بها هذه الليلة ستحل تلك الصعوبات جميعاً
وكانت عينه الى النافذة فصاح :

— وها هي الآنسة مورستان قد أقبلت في عربة مقلعة . هل أنت متأهب ؟ اذن من الخير أن نزل فوراً لأن الوقت قد أزف وتداولت قبعتي وأثقل عصا أمليهما . ولكني لاحظت أن هولمز أخذ مسدسه من درج مكتبته ودسه في جيبه . وكان واضحاً أنه يرى عملاً تلك الليلة محفوفاً بالخطر



ووجدت الآنسة مورستان ملتفة بعباءة قاتمة . وكان وجهها المرهف هادئاً ولكنه شاحب . وكان لابد لها أن تكون أكثر من امرأة إن لم تشعر بالقلق وهي مقدمة على هذه العملية الغريبة المجهولة النهاية . ومع هذا كانت مالكة لجأشها تماماً . وأجابت بيديها حاضرة على الأسئلة الإضافية التي وجهها إليها شارلوك هولمز بخصوص الميجور شولتو
— كان الميجور شولتو صديقاً حميماً جداً لأبي . مخطبات أبي حافلة

بالاشارات إليه . وكان معاً من المسؤولين عن قيادة الحرس في جزائر أندمان المنعزلة . فجعلهما ذلك حميين جداً لعيشهما معاً فترة طويلة من غير عشاء . وهذه المناسبة أذكر أنني وجدت في حقائب أبي ورقة لم يستطع أحد أن يفهم منزاها . وأنا شخصياً لا أظن لها أى أهمية . بيد أني فكرت أنك ربما أحببت أن تنظر فيها . ولهذا أتيت بها معي . وهالك هي
فقبض هولمز الورقة بعناية ثم بسطها على ركبته وشرع بعد ذلك بفحصها فحفاً منهجياً بعدسته المزدوجة ثم قال :

— ان الورقة مصنوعة في الهند . وقد ظلت هذه القصاصة مثبتة في لوحة يدبوس فترة من الزمن . والرسم الذي عليها يبدو أنه تخطيط لجزء من بناء كبير فيه أمهات متعددة ودهاليز وممرات . وفي موضع منه صليب صغير أحمر بالحبر . وفوقه بقلم رصاص باهت « ٣٠٣٧ من البسار » . وفي الركن الأيسر رسوم هيروغليفية أشبه بأربعة صلبان في خط واحد تتلامس أذرعها . وإلى جانبها تخطيط غير سوى « علامة الـ ٤ » . جوناثان سمول . ومحمد سنخ . وعبدالله خان . ودوست أكبر . . والحقيقة يا آنسة أنني لا أرى كيف يمكن أن تكون لهذه الورقة صلة بموضوعنا . ومع هذا فهي ولا شك وثيقة هامة . لأنها ظلت محفوظة بعناية في حافظة النقود . ولهذا بقيت أطرافها كلها نظيفة
— لقد وجدناها فعلاً في حافظة النقود

— احفظها اذن جيداً يا آنسة مورستان . فقد يثبت أنها ذات فائدة لنا . وقد بدأت أعتقد أن هذا الموضوع ربما تكشف أنه أعمق وأشد تعقيداً مما خطر لي لأول وهلة . ولهذا لابد لي من إعادة النظر في أفكاري بصدده
ثم اضطجع في العربة ورأيت من ارتفاع حاجبيه وخواء نظرتة أنه كان يفكر تفكيراً عميقاً . فرحت أنا والآنسة مورستان نتجاذب أطراف الحديث بصوت منخفض عن رحلتنا الراهنة وما يمكن أن تتمخض عنه من النتائج ، ولكن صاحبي ظل محتفظاً بانطوائه العميق الى نهاية رحلتنا

وكننا في ليلة من ليالي سبتمبر العبوس وقد بدأت حجب الضباب تخيم على المدينة الكبيرة . والسحب الداكنة تملأ السماء حتي بدت مصابيح شارع ستراند ضئيلة لا تكشف إلا محيطاً صغيراً فيها حولها . أما الأنوار الصفراء

الصادرة من واجهات الجوانب فلم تكن تؤثر تأثيراً ملموساً . وأحسست أن في الجو ما يوحي بظهور الألباح . حتى لقد نيل لي أن المارة الذين يبرزون إلى الضوء ويختفون في الظلام بسرعة هم في الواقع أرواح من عالم غير منظور . ودلتني نظرتي إلى وجه الأنسة مورستان أنها تعانى من مثل ذلك الاحساس . أما صاحبي فكان بعيداً عن ذلك الجو كل البعد لأنه فتح دفتر مذكراته فوق ركبته وراح يدون فيه على ضوء مصباح حبيبه أرقاماً وكلمات للتذكرة في ثبات وسرعة

وأمام مسرح اللقيوم كان الزحام شديداً عند الأبواب الجانبية التي تستعمل للدخول . وهناك سيل مستمر من العربات يفرغ شحناته من السادة في ملابس السيدات في الفراء والجواهر الباهرة

وما أن وصلنا إلى العمود الثالث الذي تحدد للقاء ، حتى واجهنا على الفور رجل قصير القامة أسمر اللون خفيف الحركة يرتدى زى الحوذنى فسالنا بعد أن نتحس وجوهنا :

— هل فيكم الأنسة مورستان ؟

— أنا الأنسة مورستان . وهذان السيدان صديقاى

فانحنى الرجل وأجال فينا نظرة فاحصة ناقية ثم قال :

— عفوك يا آنسة . لا بد أن أطلب منك تعهداً بشرفك أن هذين السيدين ليس فيهما رجل بوليس

— أتعهد لك بهذا ...

فأطلق عندهم صفارة رفيعة . فأقبل على الفور أحد السياس يقود عربية كبيرة مقفلة وفتح بابها . وصعد الرجل الذي كان مخاطبنا إلى مقعد السائق العلوي وجلسنا نحن في الداخل . وما أن فعلنا حتى ألهب السائق ظهر الجواد فانطلقت بنا العربية في الشوارع العتمة بين طوايا الضباب بسرعة رهيبية قبل أن نطفن إلى الموقف الجديد

والحقيقة أن موقفنا كان شاذاً . فها نحن نركب عربية إلى مكان مجهول في مهمة مجهولة ، فاما أن يكون صاحب الدعوة إنساناً محبواً ، وهذا فرض ليس له ما يبرره ، وإما أن تكون هذه الرحلة حافلة بالنتائج المثيرة

٣٠

وكان يحيا الأنسة مورستان يتم عن الثبات ورباطة الجأش كهدهى به . ولكي قدرت أنها تخفي تحت ذلك الظهر التماسك توجساً طبيعياً . فترسعت أسرى عنها بذكريات من مغامراتي في بلاد الأفغان . بيد أني أعترف أن محاولتي هذه كانت تظاهراً يكمن تحته قلق . ولهذا كانت نبرات صوتي عصبية وسياق حديثي مضطرباً شيئاً ما

وقد أفلحت في بداية الرحلة أن أكون فكرة عن اتجاه العربية . ولكن سرعان ما تأمر الضباب الكثيف مع سرعة العربية ، بالإضافة إلى معلوماتي الشخصية المحدودة عن مدينة لندن ، فقدت الحيط ولم أعد أعرف شيئاً اللهم إلا أننا فيما يبدو بصدد رحلة طويلة المدى

أما شملوك هولمز فلم يغيب عنه شيء . فقد سمعته يغمغم بالأسماء حين تحترق العربية باليادين وتدور في الشوارع الجانبية المتعرجة كأنما تعتمد على ذلك للتضليل

— روشسترو ... والآن ههنا ميدان فنسنت . ثم هانحن نخرج إلى طريق كوبرى فوكس هول . يبدو أننا تنجه إلى ضفة سورى . هذا فعلاً ما توقفت . نحن الآن فوق الكوبرى . في وسعنا أن نلمحنا صفحة النهر في ضوء الصباح

ونظرتنا فرأينا بالفعل لمحات من نهر التاميز الساكنة ، ولكن عربتنا لم تلبث أن عبرت النهر بسرعة ثم اندمجت في تيه من الشوارع فوق الضفة الأخرى . واستأنف صاحبي ذكر الأمكنة التي نمر بها :

— طريق واندس ورت . طريق ريبورى . حارة لارك هول . شارع روبرت . حارة الرفا البارد ... يظهر أن داعينا لا ينوي أن يزلنا بالمناطق الراقية من العاصمة

وكنا فعلاً قد دخلنا في منطقة موحشة حقيرة فيها صفوف طويلة من بيوت مبنية بالطوب الأحمر تفصل فيما بينها حانات من النوع الرخيص على أركان الشوارع

ثم خرجنا من ذلك الحى إلى حى فيه فيلات من طابقين أمام كل منها حديقة صغيرة . ثم أفضى بنا ذلك الحى إلى أبنية أخرى حديثة على مشارف لندن من جهة الريف الترامى

٣١

وأخيراً وقفت العربية عند البيت الثالث من مجموعة بيوت منزله . وكانت للبيت شرفة كبيرة جديدة . وهو البيت الوحيد المأهول في تلك المجموعة . لأن سائر البيوت كانت مظلمة تماماً . وحتى هذا البيت كان الدليل الوحيد على أنه مأهول ، صدور الضوء من نافذة المطبخ . أما سائر النوافذ فكانت مغممة كالبيوت المحيطة به تماماً

ولما طرقتنا الباب فتحه على الفور خادم هندي لف رأسه بعمامة كبيرة صفراء . وأما ملبسه فيضاهي ناصعة فضفاضة وفي وسطه حزام أصفر قانع . فزاد هذا المنظر الشرقي من استعرابنا . لأنه منظر لا يتفق مع الطراز الحديث لذلك البناء في ضواحي لندن

وقطع الرجل علينا أفكارنا بقوله :

— إن صاحب ينتظركم

ولكنه لم يكذب عبارته القصيرة حتى صافح آذاننا من الداخل صوت مرتفع عذب النغاة يصيح :

— أدخلهم عندي يا ختمو تجار . أدخلهم عندي فوراً

الفصل الرابع

قصة الرجل الأصلع

اقتنينا أثر الخادم الهندي ، فسلك بنا دلهيراً عادياً خالياً من الأثاث معاً قاجباً للصدر إلى أن وصل إلى باب عن يمينه دفعه فانفتح . وعندئذ سقط علينا سلسال من الضوء الأصفر التوهج . وتبيننا في مركز ذلك الوهج رجلاً صغير القامة وقد وقف فاذا له دماغ مرتفع جداً من يافوخه ، يحيط به سياج من الشعر الأحمر . أما جمجمته كلها فتلمع في النور كما توهج قمة الجبل التي تغطيها الثلوج ومن حولها أشجار الجهنمية ذات اللون الأحمر الصارخ

وكان هذا الرجل يفرق يديه وهو واقف في مكانه ، وملامح وجهه تتحرك كحركة يديه في عصبية ، بالانقسام تارة ، وبالعبوس تارة أخرى . فوجهه على الجملة لم يستقر على حال واحد لحظة واحدة ، وقد منحت الطبيعة شفة مخطوطة تنفرج عن سطرين من الأسنان الصفراء البارزة غير المنتظمة ، كان يجتهد في إخفائهما بتسمر كفه على الجزء الأسفل من وجهه في فترات متقاربة

وعلى الرغم من صلعه الكامل ، كان يبدو في ريمان الشباب من أول وهلة . والواقع أن سنه لم تكن قد تجاوزت الثلاثين

وقد ابتدرنا يقول بصوته المرتفع الرقيق :

— خادمك يا آنسة مورستان . خادمك أيها السادة . تفضلوا بالدخول في محرابي الصغير . إنه مكان غير رحب يا آنسة . بيد أني أسسته على هواي . فجاء واحة من الفن في صحراء جنوبي لندن

وقد دهشنا جميعاً لمظهر الحجر التي دعانا للدخول فيها . إذ بدت لنا في

٣٣



ذلك البيت الكئيب وكأنها ماسة من أرقى طبقة في حلية من النحاس . ثمّت
أخر أنواع الستائر وأغلاها . وعلى الجدران من الطنافس أمثما وأبهاها ،
تتباعدها وهناك لتبرز العيان لوحة ثمينة الاطار أو زهرية شرقية نفيسة
أما البساط فكان بلون العنبر ولون الكحل ، وله وبرناعم سميك
تنوص فيه القدمان كأنهما نخطران على أديم من العشب . وقد زادت من
طابعه الشرقى جلود ثمر هائلة تناثرت فوقه هنا وهناك . وفي ركن منه حشية
صغيرة بجوارها زجيلة مطعمة بالفضة . وأما المصباح الذي تدلى من السقف
بسلاسل من الذهب فكان قنديلا صنع من الفضة الحالصة على شكل حمامة .
والوقود الذي كانت تنبعث منه شعلة تلك الحمامة له نفع عطر كرائحة العود
والد

واستطرد الرجل الضئيل بصوته الصارخ يقول :

— اسمي نادوبوس شولتو . هذا هو اسمي . وأنت طبعا الأنسة مورستان
وهذان السيدان هما . . .

— أما هذا فمستر شرلوك هولمز . والآخر هو الدكتور واظسن

فصاح بحماسة وهو ينظر إلى :

— أطيب أنت ؟ هل معك مساعك ؟ هل لي أن أطلب إليك إذا
تعطفت ؟ إن عندي شكوكا حول أحد صمامات قلبى أرجو أن تتكرم بجلائيها .
أستطيع فيما أعتقد أن أركن إلى الأورطى . أما الصمام الآخر فأريد رأيك فيه
فأخرجت مساعى وأصغيت إلى قلبه كما طلب . فلم أجد به بأسا فيما عدا
أنه كان واقعا تحت تأثير نوبة خوف شديد . إذ راح يرتجف من رأسه إلى
قدمه . فقلت له بكل هدوء :

— لك أن تطمئن . فصمامات قلبك تبدو عادية ولا داعى للقلق

— أرجو أن تغفر لي الأنسة مورستان ازجاجى . فقد طال بي الارتباب
في ذلك الصمام حتى عذبني الشك . وكم يسرنى أن أسمع الآن أن صماماتى
بخير . ولو أن والدك يا آنسة مورستان لم يكن بالغ في إجهاد قلبه ، لكان
حيّا الآن

٣٤

ووددت في تلك اللحظة لو لطمت وجه ذلك الرجل بكل قوتى . فقد
شعرت بغضب شديد من الطريقة المستهترّة التي أفضى بها إلى الأنسة مورستان
بخبر وفاة أبيها . ورأيت الأنسة تجلس فجأة وقد ابيض وجهها حتى شفتيها
وقالت :

— كنت أعرف في أعماق فؤادى أنه مات

— وفي استطاعتي أن أدلى إليك بكافة العلوامات . وأكثرت من هذا في
وسعى أن أنصفك . وهذا ما سأفعله مهما كان رأى أخى برنلوميو . وإنى
لسعيد بوجود صديقك هنا ، لا كحرس لك فقط بل كشاهدين أيضا على كل
ما سأقوله وكل ما أنوى أن أفعله . فنحن يمكن أن نقابل الأخ برنلوميو بجهة
قوية . ولكن يجب ألا يكون هناك دخلاء من الشرطة أو السلطات الرسمية .
لأننا نستطيع أن نصل إلى حل يرضى الجميع فيما بيننا من غير تدخل أحد .
ولن يضايق الأخ برنلوميو شيء مثل حدوث آى شوشرة
ثم جلس فوق مقعد منخفض وراح يرمقنا بنظرة متسائلة من عينيه
الزرقاوين الضعيفتين ، فقال هولمز :

— فيما يتعلق بي ، سأحفظ لنفسى بكل ما تقوله

وأومأت أنا برأسى علامة على الموافقة . فقال :

— هذا عظيم ! هل لي أن أقدم لكم كأسا من الكيانتى يا آنسة
مورستان ؟ أم كأسا من الطوكاى ؟ فأنا لا أحفظ هنا بأى نوع آخر من
الأبندة . أفتح قنينة ؟ كلا ؟ كما تشاؤون . وأرجو ألا يكون لديك يا آنسة
مورستان اعتراض على دخان هذا الطبايق الشرقى للمطر . فأنى عصي للزجاج
وأجد في ترجيلتي تهديئة لا تقدر قيمتها بمال

ووضع البسم الكهرمانى الثمين في فمه . فجعل الدخان يتصاعد في فقائيع
مكررة بين ماء الورد . وكينا نحن الثلاثة جالوسا في نصف دائرة ، وقد
مددنا رؤوسنا واعتمدنا بأذقاننا على أيدينا . في حين انصرف ذلك الأصلع
المهزوز الأعصاب يدخن ترجيلته في مركز الدائرة . إلى أن قال :

— حينما خطر لي لأول مرة أن أصل بك فكرت في أن أبين في الرسالة
عنوانى . ولكنى تخوفت أن تتجاهلى دعوتى أو لا تراعى شروطها فتحضرن

٣٥

الفصل الخامس

شرح فى النافذة

وهاكم القصة كما رواها لنا بصوته الحاد وملاحظته المتغيرة :

« كان أبى كما أظنكم قد ختمتم هو الميجور جون شولتو ، من ضباط
الجيش الهندى السابقين . وقد أحال نفسه الى التقاعد منذ نحو احد عشر
عاما ، وجاء ليقم في بوندبشبرى لودج في نروود العليا

« وكان قد أتى وهو في الهند وعاد من هناك ومعه مبلغ طائل من المال
ومجموعة ضخمة من الطرائف الثمينة ، وطاقتهم كامل من الخدم الوطنيين .
وبفضل هذه المزايا اشترى لنفسه بيتا وعاش فيه محوطا بأبهة كبيرة . ولم يكن له
من الذرية سواى أنا وشقيقى التوأم برنلوميو

« وانى أذكر بكل وضوح تلك الليلة التي أحدثها اختفاء الكابتن
مورستان . فقد طالعنا التفاصيل في الصحف ، ولما كنا نعلم أنه من أصدقاء
والدنا فقد ناقشنا تلك القضية بكل توسع في حضوره . فكان يشارك في تكهناتنا
عما عساه حدث لصديقه . ولم يخطر لنا في أى لحظة انه كان محتفظ في صدره
بسر ذلك الاختفاء كاملا ، وأنه الوحيد بين العالمين الذي كان يعلم مصير
آرثر مورستان

« ومع هذا فقد كنا نعرف أن هناك لغزا غامضا ، أو خطرا واضحا ،
يرفرف بخناحيه حول أبتنا . إذ كان يخشى كل الخشية أن يخرج وحده ، وكان
على الدوام يستخدم مصارعين محترفين بصفة بوابين في بوندبشبرى لودج .
ووليز الذي جاء بك الليلة الى هنا في العربة هو أحد هذين . وكان في يوم من
الأيام بطل الوزن الخفيف بين مصارعى إنجلترا

٣٧

معك أشخاصا غير مرغوب فيهم . فأبحث لنفسى لهذا السبب أن يكون التقاؤنا
بهذه الوسيلة حتى يتمكن تابعى وليامز من مقابلتك أولا والتأكد من
صاحبيك . فأنا أتق بتمكنك تامة كاملة . وكانت أوامرى له أن يتوقف عن
الاستمرار في السألة إذا لم تعجبه دلائل الأحوال . فأرجو أن تغفري لي هذه
الاحتياطات ، لأنى رجل له ذوق خاص ، محب الانزواء وللجمال . وليس من
شئ أبعد عن الجمال من رجل الشرطة . وفي طبعى نشور فطرى من جميع
صور الخشونة المادية . ولهذا يندر جدا أن أحتك بالجمهور النض . وأعيش
كما ترين محيطا نفسى بخو فيه شئ من التأنق والرفاهية . فرعاية الفنون هى
قطعة ضعفى . ولذلك اشتريت هذه اللوحات التي رسمها عباقرة المصورين ، ولم
أدخر في ذلك ثمنا

— عفوك بامستر شولتو . إن السبب في حضورى الى هنا بناء على طلبك
هو رغبتى في أن أعرف سرا معينا رغبت أنت في الاطلاع عليه . ونحن الآن
في ساعة متأخرة . لهذا في مرجوى أن تستغرق المقابلة أقصر مدة ممكنة
— بل لا بد أن تستغرق بعض الوقت على أحسن الفروض ، لأننا ينبغي
بالنأكد أن نذهب إلى نروود كى نقابل الأخ برنلوميو . سنذهب جميعا
ونحاول أن نغمه بالحسنى . لأنه حائق على جدا منذ سلكت الاتجاه الذي بدا
لى صوابا . وقد تشارجرنا في الليلة الماضية وتبادلنا الألفاظ القاسية . ولن
تستطيعوا أن تصوروا أى فنى فظيع يصبح أخى حين بغضب

فاقترحت أنا أن نبادر بالذهاب إلى نروود إن كان ذلك أمرا محتوما .
كى لا تتأخر في العودة . وعند ذلك انطلق يقهقه حتى اجمرت أذناه وقال :

— لا يمكن أن نذهب هكذا . فأنا لا أدرى ماذا يمكن أن يقول إن أنا
أخذتكم اليه على هذه الصورة الفاجئة . ويجب أولا أن أعدكم للموقف بأن
أخبركم بوضحة أمور هامة . مع العلم أن عناصر خطيرة في الموضوع ما زالت
سرا خافيا على أنا نفسى . وكل ما فى استطاعتي هو أن أضغ أمامكم الوقائع كما

هى فى علمى

٣٦

« ولم يشأ والدنا أن يدلي لنا بأى شيء عن مصدر خوفه . الا أننا لاحظنا كراهيته الظاهرة لجميع ذوى الأرجل الحشوية ، حتى أنه في إحدى المناسبات أطلق رصاصاً مُسدسه بالفعل على رجل ذي رجل خشبية اتضح أنه بائع متجول مسكين مأمون الجانب طرق بابنا التماساً للرزق . واضطر إزاء ذلك ان يدفع للرجل مبلغاً كبيراً كي يتكتم الأمر . وقد خطر لي وأنا وشقيق أن ذلك الخوف ليس الا نزوة من نزوات هذا الرجل . بيد أن الحوادث التالية أدت بنا بعد ذلك الى تغيير رأينا

« ففي أوائل سنة ١٨٨٢ تسلم والدى خطاباً من الهند كان وقعه عليه شديداً للغاية ، حتى أنه أوشك أن يرمى عليه عندما فضه وهو على مائدة الافطار . ولم نستطع أن نكتشف مطلقاً ماذا كان في الخطاب ، ولكن تبينت حين كان ممسكاً به في يده أنه كان موجزاً ومخبط كبير . وأصاب والدى السقم منذ تلك اللحظة الى أن مات . أجل انه كان مريضاً بالطحال من قبل . لكن حالته أمنت في السوء بسرعة . وفي أواخر شهر أبريل علمنا أن صحته أصبحت ميؤوساً منها ، ولهذا فهو يريد أن يقضى لنا بكلمته الأخيرة

« فلما دخلنا حجرته كانوا قد أجلسوه في الفراش مستنداً الى الوسائد وهو يلتقط أنفاسه في صعوبة . فطلب منا أن نغلق الباب وأن نقف على جانبي فراشه . وعندئذ تناول يدينا وأدلى لنا بموضوع خطير ، في صوت تناوأت على تحطيم نبراته عوامل الانفعال وعوامل الألم . وسأحاول هنا أن أخبركم بما قال بنصه كما وعته ذاكرتي . قال :

— لا يتحل على قلبي في هذه اللحظة الحاسمة غير عبء واحد . وأعني بذلك الطريقة التي عاملت بها اليتيمة المسكينة ابنة مورستان . فطعمي للمعون الذي كان رذيلتي الملائمة طيلة حياتي هو الذي حرم هذه المسكينة من نصيبها في الكنز . وذلك النصب لا يقل عن النصف . ومع هذا لم أستفد أنا من هذا الكنز شيئاً . حقاً أن البخل أعمى وأحمق ! فحض الشعور بالامتلاك لذلك الكنز كان عزيزاً على نفسي حتى لم أستطع أن أحتفل فكرة مشاركة أحد لي فيه . أتريان الى هذه المسجحة من جنات اللؤلؤ الموضوعة بجوار قتيبة الكينين ؟ حتى هذه لم أستطع أن أحمل نفسي على التخلي عنها . مع أنني كنت

٣٨



وقال الميجور شولتو وهو يشير للشبح : « انمعا عن بحق المسيح ! »

فها بنا نقوله خفية معاً . فكان كلامه هذا كافياً لاقناعي بحكمة الصمت لأنه ان كان خادى الحماض وعشيري القديم نفسه لا يريد أن يصدق ييراني ، أولاً يستطيع ذلك ، فكيف يجوز لي أن أتوقع النجاح في ادخال الحقيقة في رؤوس اثني عشر معنوهاً من الملقين ؟ لهذا نهضت وقلت الجنة في تلك الليلة مع لال شودار الى حيث لا يكشف أمرها أحد . وبعد بضعة أيام كانت صحف لندن طامحة بأبناء الاختفاء الغامض الذي وقع للكاتبين مورستان . ومن هذا يمكن أن تريا أن والدك لا يمكن أن يقع عليه اللام في مقتله . وإنما كل اللام الذي أنتعذب الآن منه لأنني كما أخفيت الجنة أخفيت أمر ذلك الكنز . ووضعت يدي على نصيب مورستان كما وضعتها على نصيب . ومن أجل هذا أرغب اليك أن تصلح ذلك الخطأ . فأدنيا أذنبك من في لأمس لك بالوضع الذي خبأت فيه الكنز . إنه في

« وفي تلك اللحظة حدث لملاحة تغيير شبح . فاذا حدثنا تحديقاً بوحشية وإذا فكه يسقط . وإذا به يصرخ بصوت لن أستطيع أن أنساه :

— انمعا عن بحق المسيح ! ابقاه خارجاً !

« فتلقتنا كلانا وراء ظهرنا نحو النافذة التي كان بصره مركزاً عليها . فاذا وجه يطل علينا من ظلام الحديقة . وتبيننا بياض الأنف في الموضع الذي كان منتصباً بزجاج النافذة

« كان وجهاً منتصباً كثير الشعر . له عينان قاسيتان وفي ملامحه شرمبيت وحقد دفين . فاندفعت أنا وأخي نحو النافذة . ولكن الرجل أسرع بالانصراف . فلما رجعنا الى أبنينا ، كان رأسه منكسا فوق صدره ، وقد كفت نبضه عن الحفان »



قد أخرجتها من صندوق الكنز على نية ارسالها لها . فليكن يا ولدي أن تعطياها نصيباً عادلاً من كنز « أجرة » . ولكن لا تبعنا بها شيء . — حتى ولا هذه السبحة — ربنا أمضى لحال سبيل . فكلم من رجل وصل من السوء الى هذا الحد ثم شفي . وسأخبركم الآن كيف مات مورستان . إنه كان يعاني منذ سنوات من ضعف القلب ، الا أنه أخفى ذلك عن الجميع . فلم يعلم به أحد سوى . وعندما كنا في الهند وصل الى أيدنا عن طريق ملابس غريبة كنز هائل . أضمرته أنا الى إنجلترا . فلما جاء مورستان من الهند حضر الى هنا مباشرة ليطالبي بنصيبه . وكان حضوره سراً على قدميه من المحطة وكان الذي أدخله عندي هو خادى الأمين العجوز « لال شودار » الذي مات بعد ذلك . ونشب بيني وبين مورستان خلاف في الرأي حول طريقة تقسيم الكنز وأوصلنا ذلك الى التناوب بالألفاظ الحادة . فاذا مورستان ينفر قائماً من مقعده في نوبة غضب شديد . ووجهه وضع يده على جنبه ، وسرت الزرقة في وجهه ، ووقع على ظهره فضجت رأسه على زاوية صندوق الكنز الحديدي . فلما اغتضب فوقه اعتراني الدعر الشديد . لأنني وجدته ميتاً . ولبثت فترة طويلة جالساً لا أقوى على الحراك ، شارداً لا أستطيع التفكير فيها أصنع . وأول خاطر خطر لي طبعاً هو الصراخ في طلب النجدة . ولكن لم يكن هناك مناص من جلب تهمة قتله على رأسي لو فعلت ذلك . لأنه مات ونحن نتشاجر . وشجع مؤخرة رأسه دليل قوى ضدى . ثم إن التحقيق الرسمي لا يمكن أن ينتهي من غير اقتضاح سر ذلك الكنز الذي كنت حرصاً على كتمانها . وكان قد أخبرني أنه ما من إنسان على وجه الأرض يعرف أين ذهب قيدا لي أنه لا ضرورة لأن يعلم أحد ذلك عن طريق ، وكنت مستغرقة في فحص تلك السألة وتقليبها في ذهني حينما رفعت رأسي فاذا بخادى لال شودار واقف في فرجة الباب . فتسلل داخلاً وأغلق الباب بالملزاج وراه ثم قال لي : « لا تخف يا صاحب . لا لزوم لأن يعرف أحد أنك قتلته . فلنصفه بعيداً . ولن يصيبنا من ذلك سوء » . فلما حاولت أن أقمعه بأني لم أقتله ، هزل لال شودار رأسه وابتم ثم قال : « لقد سمعت كل شيء وأنا خارج الباب يا صاحب . سمعتك تتشاجران . ثم سمعت صوت الصدمة . ولكن اطمئن يا صاحب . فعلى في قفل ضاع مفتاحه . والجميع في الدار نيام

٤٠

البحث عن الكنز

توقف الشاب الأصغر عن الكلام برهة بعد أن وصل إلى وفاة أبيه وأثار في نفوسنا الفضول حول الشبح وحول ذلك الكنز الذي يخص الأنسة مورستان فيه مقدار النصف ولا يدري أحد أين أخفاه الرجل الذي دفن سره معه . ثم استطراد بعد ذلك يقول :

« جعلنا نفحص جوانب الحديقة تلك الليلة بكل تدقيق مستطاع فلم نجد أثراً على الإطلاق لصاحب ذلك الوجه الخفيف اللهم إلا علامة واحدة تحت النافذة مباشرة حيث كان يقف في حوض الورد . ولولا هذه العلامة الواحدة لظننا أننا كنا واهمين وأنه لا وجه هناك ولا شبح »

« وبعد قليل وجدنا بين أيدينا دليلاً آخر على وجود عناصر خفية تقوم بأدوارها حولنا بمهارة . فقد وجدنا في صباح اليوم التالي نافذة حجرة والدنا مفتوحة . وقد أخرج كل ما في الدواليب والصاديق . ووجدنا فوق صدر الجئنة قصاصة مزققة من الورق وقد كتب فوقها بخط مهوش « الرقم ٤ » . ولم نفهم طبعاً معنى هذا الرقم ولا من عساه يكون الزائر الخفي، وكل ما استطعنا التأكد منه هو أن شيئاً من ممتلكات والدنا لم يسرق ، مع أن كل شيء قد قلب رأساً على عقب »

« وبطبيعة الحال ربطت أنا وأخي بين هذه الحادثة وبين الخوف الذي يسيطر على حياة أبي . ولكن فيما عدا ذلك بقي كل شيء في الظلام »
وتريث الأصغر بعد ذلك كي يسوي النار فوق زجيلته ويجذب منها أنفاساً أخرى عبقة . بل كان التشويق قد استولى علينا جميعاً أمام هذه الألغاز التواليمة .

وحتى الآنسة مورستان التي شحب وجهها فترة بعد أن سمعت بوفاة أبيها سرعان ما طغى الفضول عليها حتى نسيت تلك الصدمة . وأما شلوك هولمز فاضطجع في المقعد وقد ظهر على وجهه الاهتمام التام فلم يسعنى سوى أن ابتمس . لأنه في صباح هذا اليوم نفسه كان قد شك إلى مر الشكوى من رتابة الحياة واقفارها مما يهز الأعصاب ويستثير الدهن . فإذا هو أمام معضلة تقف من مواهبه موقف التحدي . وبعد أن نقل رب الدار نظره بيننا مزهواً بنجاحه في تعليق اهتمامنا بغمه قال :

« ولكم أن تتصوروا مقدار انشغال ذهني أنا وأخي بموضوع ذلك الكنز المجهول الذي حدثنا والدنا عنه قضيبتنا أسابيع وشهوراً نحفر ونقب في كل جزء من أجزاء الحديقة من غير أن نوفق في العثور على مكانه . وكنا نوشك أن نجني كما تذكرنا أن مكان ذلك الكنز كان على طرف لسانه حينما فاجأه الموت . وكنا نتخيل نفاسة محتويات ذلك الكنز على ضوء تلك المسححة المصنوعة من جبات اللؤلؤ . واحتدم الخلاف بيني وبين أخي برنولميو حول تلك المسححة . لأن اللآلئ التي صنعت منها عظيمة القيمة . ولهذا لم تسمح نفس شقيق برنولميو أن يتخلى عنها . فشقيق برنولميو بيبي وبينكم ورث شيئاً من خصال أبي »
« وكان من رأيه أيضاً أن تنازلنا عن هذه المسححة سيفتح الباب على مصراعيه أمام الشائعات مما يسبب لنا المتاعب . وكل ما أفلحت فيه هو الحصول منه على لؤلؤة من جبات هذه المسححة بين الحين والحين كي أرسلها إلى الآنسة مورستان لإراحة لضميري بعض الشيء . وحتى لا تشعر أنها وحيدة في الحياة »
فبادرت الآنسة مورستان تقول :

— كان هذا تطفلاً كريماً منك ...

— دعى هذا الكلام . فلم تكن إلا وصيبي على حقوقك . أو هذا على الأقل كان رأيي في الموضوع . وإن كان الشقيق برنولميو قد خالفني فيه . ولست أفهم مبرراته . فلدننا من المال ما يكفينا بالفعل . ولا أرب لي شخصياً في مزيد من الثروة . ثم إنني لا أجيد من النفاق أو الأدب أن تعامل سيدة شابة على هذا النحو السقيم . ولكن صدق الفرنسيون حين أحسنوا التعبير عن آداب السالوك في مثاهم « ان فساد الذوق يفضي إلى الجريئة » . وقد وصل الخلاف

« إن برنولميو إنسان ما كرم بارع الذكاء . أتدرون كيف اكتشف مكان الكنز ؟ لقد جئنا في الحديقة فلم نوفق . فأتى إلى الجزم بأن الكنز مخبئ في مكان ما داخل أبواب الدار . فراح يحسب تكعيب البناء بأكله بحيث لا تفلت منه بوصة واحدة . وجعل يقيس كل حجرة وكل خزانة . وبهذه الطريقة اكتشف أن ارتفاع البناء أربعة وسبعون قدماً . ولكنه عند ما أضاف ارتفاع الحجرات وما بينها من سقوف لم يصل المجموع إلى أكثر من سبعين قدماً . ومعنى ذلك أن هناك ارتفاعاً مقداره أربعة أقدام لم يدخل في الحساب . ولا يمكن أن يكون إلا في قبة البناء »

« وعندئذ أحضر بنفسه وتداً من الحديد وخرق السقف من أعلى حجرة في البيت . وإذا به يكتشف فعلاً حجرة صغيرة داخل السقف المزدوج كان بابها مغطى بالجص ولا يعرف بوجودها أحد »

« وفي وسط هذه الحجرة وجد خزانة الكنز . فدلاها من الثقب الذي أحدثته في السقف بواسطة جيل . وهي الآن في تلك الحجرة العليا التي أقام بها شخصياً . وهو يقدر قيمة الجواهر التي يضمها الكنز بأكثر من نصف مليون من الجنيهات الذهبية »

وعند ذكر ذلك الرقم الضخم حلقنا جميعاً ورحنا بتبادل النظرات . ففي حالة النجاح في حماية حقوق الآنسة مورستان ستتغير حالتها من النقيض إلى النقيض . وتقلب من مرتبة تعيش في كنف الحساجة إلى أخرى واردة في إنجلترا بأسرها »

أجل كان من واجبي أي صدق مخلص لها أن يتبين لهذه الأبناء . ولكن نجبني أن أقول إن الأناية استولت على زمام قسي . وإن هذه الأبناء أتقلت قلبي حتى غدا كتلة من الرصاص في حنايا صدري . وأخذت أعظمهم بالفاظ للتهنئة منقطعة مضطربة . وبعدها غصت في مقعدى مطأطئ الرأس ، لا أكاد من فرط الغم أسمع شيئاً مما يثرثر به صوت نادبوس شولتو الأصغر . الذي راح يتحدث عن متاعبه الصحية ويسألني عن رأيي في التفنا كرا الطبية التي كان يحتفظ بها في محفظة صغيرة من الجلد في جيبه . ولا أذكر بالضبط ماذا كانت اجاباتي الواردة في تلك المناسبة . وأرجو ألا يكون نادبوس قد عاها في ذاكرته .

بيننا في هذا الشأن إلى حد أنني رأيت من الأوفق أن استأجر لنفسى سكناً خاصاً . وعلى هذا الأساس غادرت بوندتشيرو لودج وسجبت معي ختموتجار العجوز وويليامز »

« وبالأمر بلغني أن حدثاً على أقصى درجة من الأهمية قد وقع . ألا وإن الكنز قد اكتشف مكانه . وعلى الفور اتصلت بالآنسة مورستان . ولا يبق علينا الآن سوى أن نسد الرحال إلى نوروود ونطالب بنصيبنا في الكنز . ولما كنت قد بسطت وجهة نظري ليلة أمس للأخ برنولميو . فسوف نجد توقع زيارتنا . حتى ولو لم يرحب بها »

وتوقف المستر نادبوس شولتو عن الكلام . ولزمننا نحن الصمت متفكرين في الاتجاه الجديد الذي أجهته المسألة الغامضة في مجموعها »

وكان هولمز أول من وثب منا للعمل فقفز واقفاً على قدميه وقال :

— لقد أحسيت صنماً يا سيدى من البداية إلى النهاية . ومن الممكن أن نزد إليك بعض حيلك بأن تلقى الضوء على الجانب الغامض الذي يحكم من القضية . ولكن الوقت متأخر كما لاحظت الآنسة مورستان . ولهذا يحسن أن نشط للعمل من غير تأخير »

وعندئذ طوى رب الدار خرطوم الرحلة في أناة ونظام . ثم استخرج من وراء إحدي الستائر معطفاً طويلاً جداً غطيت ياقته وأكلمه بفراء الاستراخان الفاخر . وأقلل أزراره حتى الرقبة بالرغم من دفء الليلة . وأتم زبنته بارتداء قبعة من فراء الأرانب يتدلى منها غطاءان للأذنين بحيث لا يبدو للعيان من وجهه إلا الصفحة الأمامية التي لا تستقر على حال . وعلق على ذلك وهو يتقدمنا في الدهليز قوله :

— إن صحتي ضعيفة بعض الشيء . ولهذا فأنا مضطرب أن ألزم الحديقة إلى حد بعيد »

وكانت العربية في انتظارنا . ولا شك أن الترتيبات كانت معدة من قبل . لأن السائق انطلق بنا من غير كلام بأقصى سرعة ممكنة وجعل نادبوس شولتو يتحدث من غير انقطاع طول الطريق بصوته الحاد الذي يرتفع فوق جلبة العجلات »

لأنني لا أضمن دقتها . وقد أخبرني هولمز فيما بعد ان تحطى في توصياتي له كانت آية من الآيات . فقد حذرته مثلا من خطر جسم هو تعاطى أكثر من نقطتين من زيت الخروع رحمة بقلبه . وفي الوقت نفسه نصحت له بكمية كبيرة من الأستركين كسبل جيد للأعماء !

ومهما كان الوضع ، فقد أحسست بارتياح شديد للخلاص من هذه الأسئلة الثقيلة حينما جذب الحوذى الأعنة فوقفت العربية دفعة واحدة اهتزنا لها . ثم قفز الحوذى الى الأرض وفتح الباب

وقال نادوبوس شولتو وهو يتناول يد الأنسة مورستان كي يساعدها على النزول :

— هذه هي بونديتشرى لودج يا آنسة

وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة عند ما وصلنا الى هذه المرحلة الأخيرة من مغامرتنا الليلية . ووجدنا انسا فارقنا في المدينة الضباب الرطب لنجد الهواء العليل والسماء الصافية في الريف . وكانت الرياح الدافئة تهب من جهة الغرب . والسحب الخفيفة تعبر السماء فتختفي بين الحين والحين القمر الذي كان أحذب



الفصل السابع

مأساة بونديتشرى لودج

كان ضوء القمر الطبيعي يسمح بالرؤية إلى مسافة معقولة . يسد أن نادوبوس شولتو تناول بيده مصباحاً من المصابيح الجانبية للعربة ، كي يتيح لنا إضاءة كافية للطريق

وكانت بونديتشرى لودج تقوم وسط حديقة مترامية . تحيط بها أسوار عالية جداً من الحجر تتوجها شظايا الزجاج . وكان المنفذ الوحيد إلى الداخل عبارة عن باب ضيق من الحديد ، وعلى ذلك الباب توالى طرقات صديقتنا على طريقة سعاة البريد . فسمعنا صوتاً غليظاً بصرخ من الداخل :

— من هناك ؟ . . .

— أنا يا مالك موردو . أنت تعرف بالتأكيد طريقة طرق الباب

فأعقبت ذلك زجاجة وصليل مفاتيح . ثم انفتح الباب في تناقل ووقف في فرجة رجل قصير القامة عميق الصدر ، سقط الضوء الأصفر على وجهه المتجهم وعينه الثقابتين اللتين تفيضان بسوء النية وعدم الثقة . ثم قال :

— أهذا أنت يا مستر نادوبوس ؟ ومن هؤلاء الذين معك ؟ إنني لم أتلق أوامر من السيد بخصوص أحد

— أحقاً يا مالك موردو ؟ إنك تدهشني ! لقد أخبرت شقيقتي في الليلة الماضية أنني سأحضر معي بعض الأصدقاء

— إنه لم يخرج اليوم من حجرته طول النهار يا مستر نادوبوس . ولهذا ليست عندي أوامر منه من أي نوع . وأنت تعلم كم ينبغي أن ألتزم حذافير

الأوامر . فمن الممكن أن أدعك تدخل . أما أصدقاؤك هؤلاء فليس عليهم إلا أن يتقوا حيث هم

وكانت هذه عقبة غير منتظرة . فتلفت نادوبوس شولتو فيما حوله حائراً مرتبكاً وقد أسقط في يده . ثم عاود الكرة قائلاً :

— ما أسوأ هذا العمل يا مالك موردو . فإدامت أضغمتهم فينبغي أن تتكفي بهذا . وهالك السيدة . وهي لا يمكن أن تنتظر على قارعة الطريق العام في مثل هذه الساعة المتأخرة يا مالك موردو

فلم يتزحزح البواب عن موقفه وقال :

— آسف جداً يا مستر نادوبوس . فربما كان السادة من أصحابك ، ولكنهم ربما لم يكونوا من أصحاب سيدي . وسيدي يجزل لي العطاء لأقوم بواجبي . ولهذا سألتزم حدود هذا الواجب . لأنني لأعرف أحداً من أصحابك هؤلاء

فصاح شرلوك هولمز عندئذ فجأة قائلاً :

— بل تعرف يا مالك موردو ! ولا أظنك قد نسيتني . ألا تذكر ذلك الهاوي الذي نازلك ثلاث جولات لدى أليسون في ليلة تكريمك منذ أربع سنوات ؟

فصاح المصارع المحترف قائلاً :

— لست المستر شرلوك هولمز ؟ وإيم الحق كيف أخطأت معرفتك يا سيدي ؟ ولو أنك بدلا من الوقوف صامتا هناك تقدمت خطوة وأطبقت ياحدى لكفانك تحت فكي ، لعرفتك من غير حاجة إلى سؤال . إنك وربي شخص أضاع مواهبه ! وكان في استطاعتك أن تطمح إلى العلاء لو انضممت إلى المهنة واحترفت

فقال هولمز ضاحكا :

— ها أنت ترى يا وطني أنني حين تعوزني الوسائل للكسب ، أممي مهنة طيبة فتفتح لي ذراعها . وأنا واقف أن صديقتنا لن يتركنا بعد ذلك تحت رحمة البرد في الخارج

— بل تدخل يا سيدي . ادخل أنت وأصحابك . آسف جداً يا مستر

نادوبوس . فالأوامر التي عندي مشددة جداً . ويجب أن أتأكد بنفسى من أصدقاؤك قبل أن أدعهم يدخلون . أما الآن وقد تأكدت . . .

واخترقتا بمضى مرصوفاً بالحصاء بين أحواض مهملة ، إلى كتلة ضخمة من البناء للربيع غارقة في الظلام ، فيما عدا موضع واحد في الطابق الأعلى كانت تنعكس عليه أشعة القمر

وكان حجم البناء وشكله وجهامته وسكونه المطبق يبعثان البرودة إلى القلب . وحق نادوبوس شولتو نفسه كان يبدو غير مستريح . فأخذ القانوس يرتعد في يده . ولم يلبث أن قال :

— هناك شيء يستعصى على فهمي . لا بد أن هناك خطأ . لأنني أخبرت بوضوح شقيقتي برثولوميو أننا سنحضر الليلة . ومع هذا لا أرى نوراً في نافذته . ولست أدري ما معنى ذلك

فسأله هولمز قائلاً :

— هل من عادته أن يتشدد في الحراسة بهذه الصورة دائماً ؟

— نعم . فهو يتبع في ذلك عادات أبي . وكان هو الابن المقرب اليه . وفي بعض الأحيان يحظر لي أن والدي أخبره من أسراره أكثر مما أخبرني . وهذه النافذة العليا التي ينعكس عليها ضوء القمر هي نافذته . ولكني لا أعتقد أن بداخلها نوراً . فهذا المعان من ضوء القمر وحده

— ليس بداخلها نور . ولكني أرى وميضاً في هذه النافذة الصغيرة بجوار الباب

— هذه هي حجرة المشرفة . وهي مسر بيرنستون العجوز . ولا شك أنها ستخبرنا بكل ما هناك . ولكني أرجو ألا تمانعوا في البقاء هنا دقيقة أودقيتين . لأننا إن ذهبنا بأجمعنا ولم يكن لديها علم سابق بقدمونا ، ربما دعت . ولكن صه ! ما هذا ؟

ورفع القانوس بيده المرتعدة فجعلت دوائر الضوء تهتز من حولنا . فتشبثت الأنسة مورستان ببعضي . ووقفنا كلنا واجبي القلب وقد أرهقنا آذاننا . فوصل إلينا من البيت الكبير المعتم في سكون الليل صوت ليس أبعث منه للوجوم والفرع . صوت صراخ امرأة مروعة . فقال شولتو :

— هذا صوت مسز برنستون . فهي المرأة الوحيدة في البيت . انتظروني هنا . سوف أعود بعد لحظة واحدة

وأسرع الى الباب فطرقة على طريقته الخاصة . واستطعنا أن نرى امرأة طويلة القائمة تفتح له ويبدو عليها الإتهاج الشديد لمجرد وقوع نظرها عليه ، ثم سمعناها تقول له بصوت حاد اللهجة :

— آه يا مستر نادوبوس ياسيدي . كم أنا مسرورة جداً لقدومك ! ما أسعدني بحضورك الآن ياسيدي مستر نادوبوس !

وسمعناها تكرر إتهاجها الى أن أغلق الباب وخفت صوتها رويداً حتى اختفى . وكان مرشدنا قد ترك معنا الفانوس ، فرفعه هولمز وحركه بيده حولنا ليستطلع البيت وأكوام التراب والقاذورات التي تملأ أحواض الحديقة ، ووقفت أنا والآنسة مورستان معزلة وقد وضعت يدها في يدي

حقاً أن الحب شيء عجيب دقيق لطيف المدخل . فنحن الاثنان لم ير أحداً الآخر قبل اليوم . ولم يحدث أننا تبادلنا كلمة عاطفية بل ولا نظرة . ومع هذا حين حلت ساعة الاضطراب واليأس هذه ، سمعت يدك منا من تلقاء نفسها نحو يد الآخر

وكم طال تفكيري في هذه الظاهرة بعد ذلك . أما في حينها فقد بدت لي السلوك الطبيعي الوحيد من جانبي . وقد أخبرتني هي بعد ذلك أنها أقدمت على هذا التصرف من غير تفكير . بل بوحى غريزة فيها دفعها أن تتلمس عندي الراحة والحماية

وهكذا وقتنا نحن الاثنان وقد تشابكت أيدينا مثل طفلين . وكان السلام والأمن يملآن قلبينا لمجرد هذا التشابك ، بالرغم من كل الاشياء الحالكة التي كانت تحيط بنا . الى أن قالت وهي تنظر حولها :

— ياله من مكان غريب !

— يبدو أن جميع الأكوام والحنادق التي في إنجلترا جمعت ههنا . ولم يحدث في أسفاري كلها ان رأيت منظرًا كهذا الا بالقرب من البلازات ، حيث يحفر المعدنون للتقيب عن المناجم

قال هولمز معتباً على كلامي :

— وهذه الحفر خلقها أسباب مماثلة لتلك . فما تراه هو من آثار البحث عن الكنز الغامض . ولا تنس أنهم قضوا ست سنوات يبحثون بمجد واجتهاد في كل شبر من الأرض

وفي هذه اللحظة انفجر باب البيت مفتوحاً على سعته . وخرج نادوبوس شولتو يجري نحونا وقد بسط يديه أمامه وارتمى الرعب في عينيه وصرخ فينا بأعلى صوته :

— لقد حدث شيء لبرنثولميو ! اني خائف ! أعصابي لا تتحمل ذلك والحقيقة أنه كان نصف مجنون من الرعب . وملاحظه المختلجة تطل من اطوار القراء كأنها لوحة تصور اليأس والتوهم رسماً فنان لطفل لا حيلة له عند ظهور أشباح مفرجة . فقال هولمز بطريقته الحازمة :

— هيا بنا ندخل البيت ونرى بأنفسنا ما هناك

فتضرع اليه نادوبوس شولتو قائلاً :

— أجل . افعل ربك . فأنا لا أجد في نفسي القوة على التوجيه أو التصرف في مثل هذا الموقف

ولم يكن هناك ما يدعو لاستطلاعه بالقيادة . فلا لزوم لذلك حيث يوجد شرلوك هولمز الذي لا تخونه أعصابه مطلقاً ويبدو حضوره بديهته على أتم صورة في ساعات التزع

وقلنا تقدمنا شرلوك هولمز حاملاً الفانوس الى الداخل



الفصل الثامن

النوام المقبول

تبناه جميعاً الى حجرة المشرفة على الدار التي كانت على الجناح الأيسر من المر . وكانت المرأة العجوز تمشي وفي عينيها نظرة فزع وقلق ، تحرك أصابعها بعصية . فلما رأيت الآنسة مورستان بدا أن منظرها ألهمها شيئاً من الهدوء . فصاحت في نجيب هستيرى :

— بارك الله في وجهك العذب الهاديء . كم استرحت لمرآه ! إني والله قد امتحنت اليوم بما فيه الكفاية

قربت الآنسة مورستان على يدها الحيلة المشقة من العمل وراحت تسرى عنها بالفاظ مما يتقنه النساء ، فعاد الاحمرار الى خديها الشاحبين . وأخذت تستجمع قواها لتسمر لنا الموقف

— حبس السيد نفسه في حجرته هذا اليوم ورفض أن يجيئني كما طرقت عليه الباب . فطلت طول النهار أنتظر أن يخرج من تلقاء نفسه . لأن من عادته في كثير من الأحيان أن يحب العزلة . ولكن منذ ساعة خشيت أن يكون قد حدث له مكروه . فصعدت ونظرت من ثقب الفتاح . وأنت يا مستر نادوبوس يجب أن تصعد أيضاً وتظر بنفسك . فقد رأيت المستر برنثولميو شولتو في أحوال الفرح وأحوال الحزن مدة عشر سنوات . ولكني لم أره يوماً من الأيام على هذه الصورة التي بدت لي في هذه الليلة من ثقب الفتاح

فتناول شرلوك هولمز الصباح وسبقنا ، لأن نادوبوس شولتو كانت أسنانه تصطك داخل الفراء . وكان يرتجف حتى انني اضطرت أن أسنده من ذراعه ونحن تصعد السلم ، لاضطراب ركبيته

ومرتين أثناء الصمود أخرج هولمز عدسته المكبرة من جيبه ليفحص آثاراً من التراب لم تلتفت نظري فوق البساط البني الذي يغطي درجات السلم . وكان هذا البساط مصنوعاً من ألياف جوز الهند . لهذا كان شرلوك هولمز يصعد ببطء شديد درجة درجة ، وقد خفض السباح وراح يلقي نظراته الفاحصة على العيين واليسار . أما الآنسة مورستان فبقيت بجوار مشرفة الدار المذعورة

وانتهى الطابق الثالث من السلام الى بحر طويل بعض الطول ، يشغل جداره الأيمن رسم زخرفي على سجادة هندية كبيرة . أما الجدار الأيسر فيه ثلاثة أبواب

وجعل هولمز يتقدم في ذلك المر على طريقته النجيجة البطيئة . ونحن في أعقابها تتلاعب ظلالنا الطويلة القائمة على أرض المر . وكان الباب الثالث هو الباب الذي نشده . فطرقة هولمز ولكنه لم يتلق جواباً . فحرك القميص وحاول أن يفتح الباب فإذا به مغلق من الداخل بمزلاج عريض قوي . ولما كان الفتاح من الداخل في وضع لا يغلّق الثقب كل الاغلاق فقد انحنى شرلوك هولمز فوقه . ولم يلبث ان انصب واقفاً وهو يشهق شهقة حادة . وقال لي وقد ظهر عليه من الانفعال ما لم أشهده على وجهه مطلقاً من قبل :

— في هذه المسألة عنصر شيطاني ياوطن . انظر وقل لي رأيك . فأخبرت فوق الثقب ولم ألبث أن تراجعته مذعوراً . فقد كان ضوء القمر يتدفق في الحجرة فيضيؤها . وهناك رأيت وجهاً يحرق في عيني مباشرة ، وكأنه معلق في الفضاء ، لأن كل ما حوله كان ظلاماً . وكان هذا الوجه هو وجه رفيقنا نادوبوس بلحمه ودمه ! هذه الجهة اللامعة والجمجمة العالية العسارية . وهذا السباح المستدير من الشعر الأحمر . وهذه الملامح الشاحبة

وكل الفرق ان الوجه الذي رأيته في الداخل كان يقر عن ابتسامة فظيعة غير طبيعية كانت تبدو في ضوء القمر وسكون الحجرة الشامل أثقل على الأعصاب من كل تقطيب أو عبوس

وكان هذا الوجه يشبه وجه صديقنا الى درجة انني نظرت ورائتي كي أتأكد

من أن نادوس مازال معنا فعلا . ثم تذكرت انه أخبرنا منذ البداية ان شقيقه كان توأمه . وقلت لهولمز :

— هذا فظيخ ! ماذا يجب أن نصنع ؟

— يجب أن نحطم الباب ...

ثم ضغط بكل ثقله على القفل . فصر الباب ، ولكنه لم يدعن . فدفعناه كلانا بكل قوتنا ، وفي هذه المرة افتتح على مصراعيه بطرقة . فوجدنا أنفسنا في داخل حجرة برنوميو شولتو

ويبدو ان الحجرة كانت معدة لتكون معملا كإيوياً . فهناك خط مزدوج من القناني للدرجة بجوار الحائط المقابل للباب . أما السائدة فكانت مزودة بمصاحح بوزن وأنايب الاختيار . وفي أركان الحجرة قشاشيات بها حوامش . ويبدو ان واحدة من هذه القشاشيات كانت مكسورة . لأن سائلا داكنا كان يتسرب منها . وكان الهواء مثقلا برائحة فاذة أشبه برائحة القطران . وشاهدنا أيضاً سلماً خشبياً متحركاً في أحد الجوانب ومن حوله كومات من الجص والطوب . ومن فوق السلم في السقف فتحة تسمح بمرور رجل منها . ونحت السلم جبل طويل ملق بغير عناية

وبجوار المائدة ، في مقعد ذي ذراعين من الخشب ، كان رب الدار جالساً وقد مال رأسه فوق كفتيه الأيسر ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الجامدة التكلفة . ولسانه فوجدناه متخشباً بارداً مما يدل على انه مات ولا شك منذ ساعات . وحيل إلى ان التشنج لا يشمل بلاجمه فقط ، بل أطرافه كلها كانت ملتوية . وبالقرب من يده فوق المائدة آلة غريبة عبارة عن عصا من الخشب مجيبة لها رأس من الحجر كأنها مطرقة . وبجانبا ورقة ممزقة وقد خنطت فوقها كالت . فظهر هولمز في تلك الورقة ثم قدمها إلى وهو يقول وقد ارتفع حاجباه بطريقة ذات مغزى :

— أرايت ؟

وفي ضوء الصباح قرأت وأنا أرتجف رعباً هذه العبارة :

— الرقعة

ثم سأله بعد لحظة وقد زاغت عيناى :

٥٤

— بحق الله ما معنى هذا كله ؟

فقال هولمز وهو ينحني فوق القليل :

لنه معناه ان الرجل قتل . مات قتيلآ . آه ! هذا ماتوتمته . انظر ! وأشار الى ما بدا لي كأنه شوكة داكئة طويلة مرشوقة في الجلد فوق أذن القليل مباشرة فقلت له :

— إنها تبدو شوكة نبات

— هي فعلا شوكة . ولك أن تنزعها . ولكن بحذر . فهي مسمومة فتناولها بين إصبعي . فخرجت من الجلد بسهولة ولم تترك في موضعها أثراً سوى نقطة صغيرة جداً من الدم تدل على موضع الشكة . فقلت :

— هذه ألغاز تبدو في نظري غير قابلة للحل . إنها تزداد تعقيداً بدلاً من أن تزداد وضوحاً

— بالعكس . إنها تتضح في كل لحظة أكثر من سابقها . وكل ما أحتاج اليه هو بعض الحلقات الناقصة كي أجعل القضية متماسكة تماماً

وكان قد نسي تقريباً وجود رفيقنا منذ أن دخلنا الحجرة . فظل الرجل واقفاً في الباب صورة مجسمة للرب ، يفرك يديه ويئن . ونجاة انفجر يصيح بصوت غاضب :

— لقد اختفى الكنز ! سرقوا منه الكنز ! هذا هو الثقب الذي دلى منه الصندوق . فقد ساعدته بنفسى في هذا ! كنت أنا آخر انسان رآه ! تركته هنا الليلة الماضية وسمعتة بنفسى يقفل الباب من الداخل وأنا أهبط السلم في أى ساعة كان ذلك ؟

— في الساعة العاشرة . وها هو الآن مات . وسيدعى البوليس . وستحيط بي الرية وأتهم بأن لي أصعباً في الأمر . نعم أنا واثق انهم سيتهمونى . لكنك لا تصدقان ذلك ؟ هل من المعقول انى كنت آتى بك الى هنا لو انى كنت القائل ؟ يا إلهى ! إنى سأجن !

وجعل يهز ذراعيه ويضرب الأرض بقدمه في فرع . فقال له هولمز وهو يضع يده على كفتيه بكل رفق :

— لا مبرر مطلقاً لهذه المخاوف يااستر شولتو

٥٥

— أنا واثق انهم سيتهمونى مع ذلك . قلبى يحدثنى انهم سيفعلونها

— لا تخف . ثق بكلامى . واسمع نصيحتى مهما كلفك ذلك

— نصيحتك ؟ ماذا تعنى ؟

— اركب العربية واذهب الى مركز البوليس وبلغ عن وقوع هذه الجناية

— أذهب بنفسى الى البوليس ؟

— طبعاً . هذه هي الطريقة لنفى الشبهة عنك . وعليك أن تعرض عليهم

هناك استعدادك لمساعدتهم من جميع الوجوه في كشف غوامض القضية

— هل أذهب وحدى ؟ ألا يأتى منكأ أحد معى ؟

— كلا . سننتظر نحن عودتك هنا

فأذعن الرجل للسكين وهو نصف مبهور . وسمعنا وقع أقدامه المتترة وهو يهبط السلم في الظلام

وما أن اختفى حتى فرك هولمز يديه ولمعت عيناه بالنشاط والانبهاج بالعمل

الذى سيتحدى مواهبه . ثم قال لي :

— والآن يا وطنن أمامنا نصف ساعة تقضيها بمفردنا هنا . فيجب ألا

نضيعها هباء بل نحسن استخدامها



٥٦

الفصل التاسع

استعراض

قاطعه بقولى :

— قل لي أولاً . إنك منذ قليل قلت إن القضية متماسكة تقريباً

— نعم ، إنها كاملة في ذهني . ولكن ينبغي ألا تترك شيئاً من غيرمراجعة

فهما كانت تبدو بسيطة الآن ، ربما كان هناك عنصر خفى لم نلفظن إليه

— أتقول بسيطة ؟

فظهر الابتسام على محياه كما يتسم المعلم المحنك لسذاجة تلاميذه الصغار وقال لي :

— بالتأكيد . ولكن اجلس أولاً في هذا الركن حتى لا تعقد آثار

أقدامك المسائل . والآن هيا الى العمل !!

— العمل ؟ ...

— نعم يجب أن نستعرض أولاً الخطوات كلها . والخطوة الأولى هي

كيف دخل هؤلاء الناس وكيف خرجوا ؟ فالباب لم يفتح منذ الليلة الماضية .

فماذا عن هذه النافذة ؟

وحمل الصباح الى النافذة وراح يتحدث بصوت مرتفع ذا كرا ملاحظاته وكأنه يكلم نفسه

— النافذة متينة . ومغلقة . ولا توجد مفضلات في الجوانب . ولا أنابيب

مياه بالقرب منها . والسقف بيد عنها جداً . ومع هذا فقد صمد رجل الى

النافذة . إن اللطر سقط ليلة أمس . وهذه طبعة قدم على حافة النافذة من

الخارج . وهذه علامة مستديرة من الطين . وهذه علامة أخرى على أرض

٥٧

الغرفة . وعلامة نائلة بجوار المائدة . انظر هنا يا وطن . ان هذا ولا شك استعراض رائع !

وقت ونظرت الى تلك الدوائر الجيدة التحديد من الطين قلت :

ولكن هذه ليست آثار أقدام

— هذه آثار شيء آمن بالنسبة لنا من آثار الأقدام بكثير . هذا طابع عكاز من الخشب . ويمكنك أن ترى على حرف النافذة طابع حذاء ضخم له كعب عريض من الحديد . ويجواره طابع القدم الحشوية

— إنه إذن الرجل ذو الساق الحشوية

— هو ذلك . ولكن كان معه أحد آخر . حليف قدير وبارع . أستطيع يا دكتور أن تتسلق هذا الجدار ؟

فقطرت من النافذة المفتوحة . وكان القمر ما زال يشرق على زاوية البيت . فوجدت أننا على ارتفاع سنتين قداماً من الأرض . ولم تقع عيني في الجدار الأملس على موضع للقدم . قلت :

— هذا مستحيل تماماً

— وفهلا مستحيل من غير معاونة من شخص آخر . ولكن افترض أنه كان معك صديق هنا في هذه الحجرة وأدلى لك هذا الجبل الغليظ الذي أراه ملقى هناك في الركن بعد أن ثبت طرفه في هذا الحطاف الكبير الموجود في الحائط . عندئذ أعتقد أنك إن كنت رجلاً نشطاً جريئاً ، ستستطيع أن تتسلق الجدار أنت وساقك الحشوية . وفي استطاعتك أيضاً بالطبع أن تنزل بنفس الطريقة . وبعد ذلك يسحب صديقك الجبل ، ويفك رباطه من الحطاف ، ثم يعلق النافذة من الداخل بالرتاج كأن أحدًا لم يدخل منها ولم يخرج

— ولكن هذا الصديق ، كيف يخرج بعد أن أغلق النافذة ؟

— يخرج طبعاً من النفذ الذي دخل منه . ويجدر بهذه المناسبة أن تفحص الجبل جيداً

ثم تناول الجبل من الركن وراح يفحصه بعدسته

— ها ها ! إن صديقنا ذا الساق الحشوية ، ولو أنه متسلق بارع للجبال إلا أنه ليس بحاراً محترفاً

٥٨

— من أين عرفت هذا يا هولمز ؟

— ان عدستي دلتني على أن يديه لم يمت جلدها كعادة البحارة المحترفين لكثرة ما تسلقوا الجبال . فقد تسلخ من جلده يديه ما لصق بألياف الجبل . وهناك نقط من الدم واضحة ولا سيما قرب نهاية الجبل . مما يدل على أنه انزلق نازلاً بسرعة كبيرة سلخت الكثير من بشرة يده

— كل هذا جميل . ولكن المسألة تزداد في ذهني غموضاً . سألتك كيف خرج الشريك ما لم يخرج من النافذة . قلت لي

— من حيث دخل في البداية طبعاً

— ولكن كيف دخل في البداية إن لم يكن دخل من النافذة . مع علنا أن الباب مغلق من الداخل ؟

فظهر على شروك هولمز شيء من التفكير ثم قال بيضاء :

— نعم . هذا الحليف ! في موضوعه الكثير مما يشير الاهتمام . فنصره هو الذي يخرج بالقضية من النطاق الشائع . ويحيل إلى أن هذا الشريك سيسجل مجازاً مبتكراً في تاريخ الجرائم في هذه البلاد . وإن كان شبيهاً بما يحدث في الهند بين الحين والحين . وبما يحدث في سنجاناميا

— ربما . ولكن كيف دخل والباب مقفول والنافذة لا يمكن الوصول إليها من غير معاونة من داخل الحجرة ؟ أمن المدخنة ؟

— ان فتحها صغيرة جداً . فقد خطر لي هذا الخاطر من قبل

— كيف إذن دخل ؟

— زيجيني منك أنك لا تريد أن تطبق توصياتي بدقة رغم التكرار . كم من مرة قلت لك أنك عندما تستبعد جميع المستحيلات فأى اقتراض يتبقى بعد ذلك مهما كان بعيد الاحتمال لا بد أن يكون هو الحقيقة ؟

— هذه فعلاً قاعدتك . ولكن كيف نطبقها هنا ؟

— نحن نعلم أنه لم يدخل من الباب . ولا من النافذة . ولا من المدخنة . ونحن نعلم أيضاً أنه من المستحيل أن يكون مختفياً في الحجرة من قبل ، لأنه لا يوجد بها أي مكان صالح للاختفاء . فمن أين يمكن أن يكون آتى إذن ؟

وعندئذ أشرقت الحقيقة في ذهني وصحمت :

٥٩

— من الثقب الذي في السقف ؟

— مرحى ! طبعاً هذا هو الذي حدث هنا . ولو أنك تكلمت تخلفت لي المصباح لمددنا إصبعنا إلى الحجرة العليا . وهي الحجرة السرية التي وجد بها الكثر . وسأصعد أنا أمامك

وصعد السلم الحشوي . ثم أمسك بإحدى دعائم السقف بكتنا يديه ثم رفع نفسه برشاقته المهودة إلى داخل تلك (الصندرة) . ووقد على وجهه ثم مد يده فتناول من المصباح شيئاً تعلق أنا كما فعل وتبعته

وكانت الحجرة التي وجدنا نفسنا فيها طولها نحو عشرة أقدام وعرضها نحو ست . وجدرانها من عروق الخشب المزدوجة . وبينها طبقة من الجص . لهذا كنا نسير على أرضها في حذر متحررين الوقوف على عروق الخشب . أما سقفها فكان هو السقف الأصلي المنحدر للبيت . وليس في هذه (الصندرة) أثاث من أي نوع . وتراب السنين المتراكم يكون طبقة كثيفة على الأرض كأنها البساط

ووضع شروك هولمز يده على قطعة من الحائط المسائل التي هو سقف البيت ثم قال :

— هاقد وصلنا . فهذا كما ترى منفذ سرى يؤدي إلى السقف من الخارج وهذا هو الطريق الذي دخل منه الجاني رقم ١ . فلنبحث لئلا هل يمكن أن نجد آثاراً أخرى تدل على شخصيته

وقرب المصباح من الأرض . وما أن فعل ذلك حتى رأيته للمرة الثانية في هذه الليلة يجلس وقد بدت الدهشة العميقة على وجهه . أما أنا فقد شعرت بالبرودة تسرى في جلدي تحت ثيابي . فقد كانت الأرض التي يقطنها بساط التراب السميك مرصعة بأثار أقدام عارية . واضحة محددة كاملة في تفاصيلها . ولكنها لا تكاد تبلغ نصف حجم قدم الرجل العادي . لهذا قلت وأنا أشعر بقشعررة :

— يا هولمز . إن طفلاً هو الذي اقترب هذه الجريمة البشعة !

ورأيت بعد لحظة يسترد رباطة جأشه ويقول :

— هذا ما هزني لأول وهلة . ثم اهتديت إلى أن ذلك طبيعي . ولولا

٦٠

أن ذا كرتي خاتمتي لكان ينبغي أن أتوقع ذلك منذ البداية . لم يعد هنا من جديد تتعلمه فيها بنا تنزل

ولما وصلنا إلى الغرفة السفلى كما كنا قلت له بلهفة :

— ما هي نظرتك إذن بخصوص آثار الأقدام هذه ؟

— يا عزيزي وطن . حاول أن تقوم ببعض التحليل بنفسك ثم استولى عليه شيء من فساد الصبر وهو يستطرد :

— انك تعرف مناهجي . فطبقه . وسوف يساعدني كثيراً أن نقارن نتائجك التي تصل إليها أنت بنتائجي التي وصلت إليها

— لا أستطيع أن أصور شيئاً يمكن أن يغطي جميع الوقائع فهز كتفيه وقال بغير اكتراث :

— سيوضح لك كل شيء عما قريب . وأعتقد أنه لا يوجد هنا شيء آخر على قسط من الأهمية . ومع هذا سأنظر بصفة احتياطية

ثم أخرج عدسته . ومقايماً دقيقاً . وأسرع يذرع أرض الحجرة زاحفاً على ركبتيه ، يقيس ، ويقارن ، ويفحص . وأثناء الطويل لا يبعد إلا قيد أصابع قليلة من خشب الأرض ، وعيناه اللامعتان الدقيقتان كأنهما عينتا طائر

وكانت حركاته من السرعة والصلت والبرونته حتى أنها أشبهت بحركات كلب الصيد العريق وهو يقفئ الرائحة . ومع هذا لم أستطع أن أعجب نفسي

من التفكير في أن هذا العبقري كان من الممكن أن يكون خطراً بشرياً مروعاً لو أنه حول طاقته العقلية ضد القانون بدلاً من أن يوجهها لخدمته وحمايته



الوسيلة الجرمية

كنت غارقاً في أفكاري هذه وتصوري له أغرب مجرم في التاريخ الحديث ، حين نهى صوته وهو يزجر بنعمة تدل على الجور الشديد :

— إننا ولا شك مجدودو الطالع هذه المرة . ولم يبق أمامنا كبير عناء . فان صاحبا رقم (١) شاء له سوء الحظ أن نطأ قدمه سائل الكربوزوت . وتستطيع أن تتبين حافة قدمه الصغيرة إلى جانب هذه الزجاجية المسكورة التي يسيل منها الكربوزوت

— وماذا في ذلك من الحظ الحسن لنا ؟

— طبعاً . معنى هذا أننا وضعنا يدنا عليه . ليس في هذا منتهى حسن الحظ ؟ فأنا أعرف كلباً يستطيع أن يقتني هذه الرائحة إلى آخر الدنيا . فهي رائحة نفاذة جداً . ولكن ماهذه الأصوات ؟ إنهم أصدقاؤنا الذين يمثلون العدالة الرسمية !

وكانت فعلاً هناك خطوات ثقيلة وأصوات مرتفعة تصل بنا من أسفل الدار . ثم سمعنا باب البهو الخارجي يقفل بدوى كبير ، فهز هولمز رأسه وقال :

— قبل أن يصعدوا ، أسرع بوضع يدك على ذراع هذا المسكين ، ثم على ساقه . بماذا تشعرون ؟

— إن عضلاته صلبة كأنها ألواح من الخشب

— نعم . إنه في أقصى درجات التخشب . وهو تخشب يزيد بكثير على التخشب الرمي المألوف في جميع الموتى . فإذا قارنا ذلك بهذا التخشب الذي

في الوجه ، وهذه الابتسامة الأبورقراطية ، ماذا تستنتج ؟

— إن الموت حدث من سم نباتي شبيه بالاستركنين . يؤدي إلى الإصابة بالتيتانوس فوراً

— هذه هي الفكرة التي خطرت لي عندما وقع نظري لأول وهلة على عضلات وجهه المشدودة . فلما بحثت عن الوسيلة التي بها تسلك السم الجهنمي إلى تكوينه ، اكتشفت كما رأيت تلك الشوكة التي غرست أو قذفت بقوة غير كبيرة إلى جلد دماغه

— هذا صحيح . ولكن كيف أصيب بها ؟

— لو نظرت في الموضع الذي انترست فيه تلك الشوكة لوجدته يقابل الثقب الذي في السقف حينما يكون القليل منتصباً في جلسته . والآن أرجو أن تفضض هذه الشوكة بسرعة

فتناولتها وعرضتها على ضوء الفانوس فوجدتها طويلة حادة سوداء وفوق رأسها نقطة صغيرة من مادة صمغية جفت عليها . أما الجهة الأخرى اللطيفة فكانت مستوية بفعل سكين . وسألني هولمز :

— هل هذه شوكة نبات انجليزي ؟

— كلا . إنها بالتأكيد ليست انجليزية

— من كل هذه العناصر ينبغي أن نصل إلى تحديد لمصدر الجرعة . ولكن دع هذا الآن ، فقد حضر الرميون ، فيجب على غير الرسميين أن يترجعوا لتركوا لهم الصف الأول

وفي هذه اللحظة اقتربت الخطوات الثقيلة الرنانة منا ، ثم دخل رجل بدين جداً يرتدى حلة رمادية ، أحمر الوجه له عينان صغيرتان جداً ينبعث منهما بريق من تحت حاجبين كيشيين . وكان يتبعه عن كعب مفتش مباحث في كسوته الرسمية ، ومن ورأهما نادوس شولتو الذي لم يزل يرتعد

وصاح الرجل البدين بصوت أجش :

— ياها من قضية ! قضية مايجة ! ولكن من كل هؤلاء ؟ وري إن اليبت يبدو مكنظاً كوجار الأرانب !

وعندئذ قال هولمز بكل هدوء :

— أخالك ينبغي أن تتذكرني يا مستر آتلي جونس

— طبعاً طبعاً أتذكرك . أنت مستر شرلوك هولمز . الرجل النظري . .

كيف لا أتذكرك ؟ إنني لن أنسى ما حبيت كيف كنت تحاضرننا جميعاً عن الأسباب والتناج في قضية مجوهرات بيشويجيت . ولا أنكر أنك وجهتنا في الطريق السليم . ولكني أحسبك لا تتأخر عن الاعتراف الآن بأن ذلك جاء خبط عشواء ، بمحض المصادفة لا عن إدراك سديد

— إنها بالعكس كانت نتيجة استنتاج غاية في البساطة

— لا ينبغي يا رجل أن تخجل من الاعتراف بالحق ! ولكن لندع هذا الآن . ماهذه القضية البشعة ؟ إنها قضية وقائع جامدة ، لا موضع فيها للنظريات . ومن محاسن المصادفة أنني كنت في تروود بصدد قضية أخرى ! وبينما أنا في مركز البوليس وصل التبليغ . ما سبب موت الرجل في رأيك ؟ فأجابه هولمز بحفاة قائلاً :

— هذه مسألة لا محل فيها لنظرياتي

— طبعاً طبعاً ! ومع هذا لا نستطيع أن ننكر أنك تصب كبد الحقيقة في بعض الأحيان . ويجي ! كان الباب مقفولاً فيما سمعت . ومجوهرات قيمتها أكثر من نصف مليون ذهباً مفقودة . وكيف كانت النافذة ؟

— مقفولة من الداخل . ولكن هناك آثار أقدام على حافتها من الخارج كما تستطيع أن ترى بنفسك

— وماذا في ذلك ؟ مادامت النافذة مقفولة فمن الجائز أن آثار الأقدام لا علاقة لها بالموضوع . هذا هو المنطق السليم . ومن الجائز جداً أن يكون الرجل مات بنوبة قلبية من غير تدخل أحد

— جائز طبعاً . ولكن هذا لا يفسر اختفاء الجواهر

— هاها ! عندي نظرية ! لا تنظر هكذا . فهذه الومضات تخطر لي بين حين وحين . اخرج من فضلك يا جاويش وأنت أيضاً يا مستر شولتو . أما صديقك دكتور وطنس ففي استطاعته أن يبيح

وخرج المفتش ، كما خرج نادوس شولتو . وبعد أن أغلقنا الباب وراءهما قال :

— ما رأيك شخصياً يا هولمز ؟ إن شولتو باعترافه كان مع أخيه الليلة الماضية . فماذا لو أن الأخ مات بنوبة . فانهز شولتو الفرصة واخفى بالكذب ؟ ما رأيك الصريح في هذا التفسير ؟

— تفسير عال العال ! وتماهه أن القليل كلف خاطره بعد هرب شقيقه بالكذب وقام فأغلق الباب من الداخل ثم عاد واستأنف رفدته الأخيرة

— آه ! هذا هو الخازوق ! فلنحاول أن نطبق المنطق المعقول على المسألة . إن نادوس شولتو كان مع أخيه . وحدثت بينهما مشادة باعترافه . والأخ مات والجواهر اختفت . هذا أيضاً مقطوع به . ولا أحد رأى الأخ منذ تركه نادوس . وفراشه يدل على أنه لم يستعمل تلك الليلة . ونادوس منظره يدل على منتهى الارتباك العقلي . وهذا يجعل الشباك تحدد بشادوس

— هناك وقائع لم تصل إلى علمك بعد . فهناك شظية صيرة من الخشب اعتقدك الاعتقاد أنها مسمومة . وقد وجدناها مرشوقة في دماغ القليل وتستطيع أن ترى موضعها بنفسك . ووجدنا أيضاً هذه الورقة وعليها هذه الكتابة فوق المائدة ، وإلى جانبها هذه الآلة ذات المقبض الصخري الغريبة الشكل ، فكيف توفق بين هذه الأشياء وبين نظريتك ؟

— أنها تعزها تمام التعزير ! فالبيت مكنظ بالطرف الهندية . وهذه الأداة كانت مع نادوس . وإذا كانت هذه الشظية مسمومة فليس علينا سوى أن نقول إن نادوس ربما استخدمها في قتل أخيه . وأما هذه الورقة فهي مكتوبة لذر الرماد في العيون كما يقولون . وكل المشكلة التي أمأى الآن هي كيف خرج الباب والنافذة مقفولان من الداخل ؟

وجعل الرجل الدين ينظر فيما حوله بسرعة ، وبخيم الران لفتت نظره الفجوة التي في السقف فأطلق صيحة تهمل . وببشاش يستغرب ممن في حجمه راح يصعد السلام قفزاً ثم دخل من الفجوة . وبعد قليل سمعنا صوت ابتهاج دلتنا على أنه اكتشف الباب المسحور في السقف . فهز هولمز كتفيه بازدياء وقال :

— إنه يستطيع العثور على شيء . وتعتريه نوبات من النكاه !

وبعد لحظة رأينا الثاني جونس مبهط وهو يقول :

— أرايت؟ إن الوقائع الجامدة خير من النظريات بعد كل حساب . لقد تأيدت وجهة نظري في القضية . فهناك باب مستحور يؤدي الى السقف . وقد وجدته موازياً . وهذا يدل

— مهلا ! أنا الذي فتحت

— حقاً؟ هل لاحظته؟ على كل حال هذا يدلنا على الطريق الذي سلكه صديقنا في الخروج بالسكنز . أيتها المقتش ! وجاء الرد من الردهة :

— أقدم !

— اطلب من الستريوتو أن يدخل

وما أن دخل السكين نادبوس حتى يادره بصوته الأجنس :

— إن واجي يامستر شولتو يحتم على أن أبلغك أن أي عبارة تنفوه بها سوف تقيدهم . فأنا أفض عليك باسم الملكة وأهمك بقتل أخيك

فصلح الرجل الأصلع السكين وقد بسط يديه وراح ينقل بصره بيننا :

— أم أفل لكها ؟

فقال له هولز بكل ثقة :

— لا تنزعج يامستر شولتو . فاني أتهد بإبراء ساحتك من هذه التهمة

فقال أثلي جونز بحدة :

— لا تسرف في الوعود يا جناب الفيلسوف الجنائي ! فقد تجد هذه المهمة أصعب مما تخيل اليك . فلا تنه بالأحلام الكذاب

— اني سوف لا أبرئه بحسب يامستر جونز . بل سأزيد على ذلك أن أقدم اليك هدية مجانية هي اسم ووصف أحد الرجلين اللذين كانا هنا في الليلة الماضية . فعندي من الأسباب القوية ما يحتملي على الاعتقاد أن هذا الاسم هو جوناثان سمول : وهو رجل قليل التعلم . قصير القامة . جهم النشاط . ساقه البني مقطوعة . وله ساق خشبية يلي منها جزء الى جهة الداخل . أما حذاءه الأيسر فضخم غليظ له مقدم مربع . ويحيط بكعبه الحديد . وهو في أواسط العمر . لوحته الشمس كثيراً وهو من السجناء السابقين . وأحسب أن هذه

الأوصاف ستساعدك ، إذا أضفت اليها حقيقة أخرى ، هي أن جانباً كبيراً من جلد باطن يده مسلوخ . أما الرجل الآخر

— رجل آخر ؟

وكان صوت أثلي جونز وهو يقاطعه بهذا الاستفهام يدل على الدهشة البالغة لما عليه أوصاف هولز من التحديد . بيد أن هولز استطرد :

— الرجل الآخر غريب الشكل حقاً . وفي مأمولي قبل مضي وقت طويل أن أتمكن من تقديمك لكليهما يا جونز !

ثم دار هولز على عقبه وقال لي :

— أريدك في كلة على انفراد يا وطن

ولما انفردنا عند رأس السلم في الخارج قال لي :

— إن هذا الاتجاه غير المتوقع في القضية جعلنا نسي الهدف الأصلي من رحلتنا . فبحن لم نحضر هنا لتحقيق قضية قتل

— هذا ما كنت أفكر فيه فعلاً ، فليس من المناسب أن تبقى الآنسة مورستان في هذا البيت المشؤم

— كلا بالطبع . فيجب أن تصحبها الى بيتها . وهي تقم لدى مسز سيسل فورستر في كامبرويل السفلى . فالسافة ليست بعيدة . وسوف أنتظر عودتك هنا . هذا إن أحببت أن تعود . أم تراك متعباً ؟

— لست متعباً على الإطلاق . ولا أظنني أستطيع أن أسترخ إلا بعد أن أعرف جلية هذا الموضوع البشع . لقد خربت من الحياة بلاياها . ولكن أقسم لك بشرفي أن هذه المقاجمات العربية المتلاعبة التي انفتحت لنا الليلة قد هزت أعصابي هذا كاملاً . ولهذا أحب أن أصل الى جلاء غوامضها معك مادمت قد أوغلت في مجاهلها الى هذا الحد

— ان حضورك سيكون ذا فائدة جلية لي . وستقوم بالعمل في هذه القضية مستقلين . وسترك هذا الخالق جونز يتخط ويبنى قصوره الواهية على الزمال كما يشاء . فأرجوك بعد أن تفرغ من توصيل الآنسة مورستان أن توجه الى رقم ٣ في حارة بنتشين ، في حي لامبث . والبيت الثالث على يدك

٦٧

الجنبي هو بيت رجل يحترف تخييط الطيور ، واسم هذا الرجل شيرمان ، وسرى في واجهة البيت أرنباً صغيراً محنطاً في متقار صقر محنط . فاطرق باب شيرمان المعجوز وبلغه تيماني ، واني بحاجة عاجلة الى « توبي » . ثم أحضر توبي معك في العربية

— انه كلب على ما أظن ؟

— نعم ، وهو كلب غريب الأطوار ، لديه قدرة خارقة على تعقب الروائح . وأنا أفضل أن يكون توبي معي على أن تكون كل قوة مباحث لندن تحت تصرفي في حل هذه القضية

— سأحضره إذن معي . والساعة الآن الواحدة . فيمكنني أن أعود قبل الساعة الثالثة إذا وقتت الى حصان مستريح

— وفي هذه اللمة سأحاول أن أستخلص كل ما يمكن من المعلومات من الشرقة على الدار مسز بيرنستون ، ومن الخادم الهندي الذي قال لي مستر نادبوس أنه ينام في الحجر العليا المجاورة لمسرح الجريمة . وبعد ذلك سأحاول دراسة خطط جونز العظيمة . واستمتع بالاصفاء لتهكمه الرقيق

ولحسن الحظ وجدت رجال البوليس قد حضروا في عربية جوادها مستريح ، وكان الحوذى لا يزال واقفاً كي يعود ٣٢ . وفي هذه العربية دعوت الآنسة مورستان للركوب كي أعود بها الى بيتها



الفصل الحادي عشر

الكلب تومبي

الحقيقة ان الآنسة مورستان أثبتت في هذه المناسبة ان فيها الشيء الكثير من طبائع اللائكة . فطالما كان أمام ناظرها مخلوق أضعف منها يستثير رحمها ورايتها ، كان ضعفها الأثوي يخفي تماماً . وهكذا وجدتها مشرقة متجلدة

تشد من عزيمة مشرقة الدار المروعة المتخاذلة . ولكن ما ان انفردت في في العربية حتى تركت لطبيعتها الرقيقة العنان ، وكان أول ما أقدمت عليه بطبيعة الحال هو الاغتمام . وأعقبت ذلك بنوبة حادة من البكاء . ولها كل العذر بعد الذي امتنحت به أعصابها طول الليلة من المغامرات المتكودة

وقد صارت حتى فيما بعد اني بدوت لها بارداً أكثر مما يجب في تلك الرحلة الى بيتها . ولا شك أنها لم تكن تدرى شيئاً عن الصراع القائم في صدري . أو الجهد الهائل الذي بذلته لأملك زمام نفسي فلا أضنها بين ذراعي

والحقيقة اني شعرت بنفسى أتجه نحوها بكل عواطف و كل حي ، كما اتجهت يدي الى يدها ونغم في الحديقة . وأحسست ان السنوات الطويلة من حوادث الحياة العادية ما كانت لتكشف لي عن طبيعتها العذبة الباسلة كما كشفها لي تجارب ذلك اليوم الواحد في غرابها الحارقة

أجل كنت بكل نفسي مندفعاً نحوها . ولكن اعتباراً واحداً أو اعتبارين هما اللذان جددا كلمات الحب على شفقي . فهي أولاً كانت في حالة من الاعياء العصبي والعقلي تجعلها غير مالكة لزمام نفسها . فلم يكن من العدل انتهاز ساعة ضعفها لأعرض عليها حي

وهذا الاعتبار كان حرياً أن يهون لولا الاعتبار الآخر . وهوانها أصبحت

٦٩

غنية . فلو كتب لجهود هولمز النجاح لورثت مئات الألوف . فهل كان من العدل ، وهل كان من الشرف ، أن جراحا على الاستيداع يستغل هذه الفرصة لاقتناص مثل تلك الغنيمة ؟ أليس من المحتمل أن تنظر الى حينئذ نظرتها الى صياد الثروة السوقي ؟

ما كنت مستظيما أن أجازف بجلولان مثل تلك الفكرة في رأسها . فكأن أجرا الملعون كان يقف بيننا حاللا لا يمكن تجاهله أو اجتيازه

□

وكانت الساعة قد قاربت الثانية صباحا حين وصلنا الى دار مسز سليل فورستر . وكان الخدم قد انسحبوا مندساعات الى مضاجعهم . أما مسز فورستر فكان اهتمامها شديدا بالرسالة الغريبة التي تلقتها الآنسة مورستان بحيث جلست ساهرة في انتظار عودتها

وكانت هي التي فتحت الباب بنفسها . فاذا بها سيده لطيفة في منتصف العمر وقد سرني أن أرى كيف طوقت بذراعها في حسان خاصرة الآنسة مورستان كأنها أم زوم . وأن اسمع صوتها يرحب بها في بشاشة الأمومة وترققها . فأدرت ان الآنسة مورستان ليست مجرد مستخدمة أجيبة ، وإنما هي صديقة معزة مكرفة

وقامت الآنسة بتدعيني اليها . فألحت مسز فورستر أن أدخل وأشرح لها كل ما حدث من الغرائب . فوضحتم لها أهمية المهمة التي لا بد لي من إتمامها . ووعدها مخلصاً أن أمر بالبيت لأبلمها أى تقدم يمكن أن تحظى به القضية . ثم ركبت العربة وتركتها على السلم الخارجى وضوء البهو يسقط عليهما من الباب المفتوح . فلما نظرت ورأى بدا لي ان صورتها في ذلك الاطار هي صورة العش الهادى . الذى يحرك كل قلب يحب لرغد الحياة . وبالتلك الصورة من تقيض لما نحن في أعماقه من ظلمات هذه القضية الضطرية

وجعلت في طريق أقلب القضية على وجوهها وأستعرض ما توالى من أحداثها فلا أكاد أجد أملا في جل ألتازها

وأخيراً وصلت بي العربة الى الوضع الأدنى من حى لامبث . فاذا حارة بنتشين عبارة عن صف من بيوت ذات طابقين قبيجة المنظر حقيرة البناء .

٧٠

واستغرقت زمناً وأنا أكرر الطرق على الباب رقم ٣ قبل أن أجد سميماً . وأخيراً ألحمت ضوءاً من شعة يتحرك وراء خشب النافذة العلوية . ثم أطل منها وجه صاح بي في غضب :

— انهب لحال سيبلك أيها السكران المريد ! ولو عدت للطرق بعدها سأفتح أكتان الكلاب وأطلق عليك ثلاثة وأربعين منها !
— لو أطلقت واحداً مميئاً منها فقط لكان هذا حسي ، لأنى جئتك أسعى وراء الحصول عليه

— قلت لك انصرف أيها اللعنة وإلا ألقيت عليك الماء القدر

— ولكنى أريد كلباً

— ليس هذا وقت بيع الكلاب . سأعد الى ثلاثة ، فان لم تبعد صيبت عليك الماء . وأحذرك انه غير طاهر

— أرسلنى مستر شرلوك هولمز ...

ولم أكن بحاجة الى إتمام كلامي . لأن هذا الاسم فعل في الرجل فعل السحر فسرعان ما أغلق النافذة . وبعد دقيقة واحدة كان باب الدار قد فتح عن آخره . فاذا للستر شيرمان رجل نحيف محجوز عنى الكتفين ، معروق الرقبة ، يلبس منظاراً أزرق اللون . ورحب بي الرجل قائلاً :

— إن صديق مستر شرلوك يحدد منى كل ترحيب في كل وقت . تفضل بالدخول ياسيدى . ابتعد عن هذا السلاقى ، فانه بعض . باللكلب الملعون ! أريد قطعة من هذا السيد ؟ والآن ماهو طلب الستر شرلوك هولمز ياسيدى ؟

— إنه يريد كلباً من كلابك . نسيت اسمه

— لا بأس . لا بد انه توبى

— فعلا . هذا هو الاسم

— توبى يقيم في المنزل رقم ٧ في الجانب الأيسر

وكان يقصد بكلمة منزل أكتان الكلاب التي جعل يحوس بينها حاملما الشعلة . وكانت عيون هذه الحيوانات الغريبة تلمع في الضوء الخافت من كل ركن في أرجاء المكان . وحتى الرفوف العليا كانت مكتظة بأنواع من الطيور

٧١

في أفصاص ، كانت تقف على رجل واحدة وتفتح عينيها من نعاسها لتبين ماذا وراء ضجتها

وتكشف توبى عن حيوان قبيح الشكل ، طويل الشعر ، مقطوع الأذنين ، هجين من سلاتين مختلفتين . لونه أبيض وبه بقع بنية . وشكل وجهه منفر . وبعد تردد شديد رأى أن يتناول من راحة يدي قطعة من السكر دسها شيرمان في يدي خلصة

وبعد أن عقدت بيننا هذه الصداقة أو المحالفة ، تبعت توبى الى العربة ولم يظهر أى صعوبة في مصاحبتي

ودقت ساعة يسبح بين الثالثة تماماً حينما وجدت نفسى مرة أخرى في بونديتشرى لودج

ولم أجد هذه المرة معارضة في الدخول من أحد . ذلك ان المصارع السابق مالك موردو كان قد قبض عليه بوضقه شريكاً في الجريمة . ورحل هو ومستر نادوبوس شولتو الى مركز البوليس . ووقف على الباب اثنان من الكونستبلات سمحا لي بالدخول وأنا والكلب

ووجدت هولمز واقفاً على السلم ويدها في جيوبه يدخلن غليونه فما أن رأيتى حتى تهلل وداعب الكلب قائلاً :

— مرحباً بك أيها الكلب النابه ! ان أئمتنى جونسن قد انصرف . ولكن بعد أن بذل نشاطاً هائلاً منذ رحيلك . فهو لم يكفه أن يعتقل صديقنا نادوبوس ، بل اعتقل أيضاً البواب ، ومشرقة الدار ، والخادم الهندي . وعلى هذا فنجن في الدار وحدنا فيما عدا جاويش في الغرفة العليا . فاربط الكلب هنا وتمال معى تصعد الى هناك

٧٢

الفصل الثاني عشر

حكاية البرميل

ربطنا توبى الى المائدة الكبيرة في البهو ثم صعدنا السلام . ووجدنا العرفة على الحالة التي تركناها بها ، فباعدا ملاءة بيضاء غطيت بها الشخصية الرئيسية . وقد وقف جاويش من رجال البوليس في الركن . فقال له صاحبي :

— أعرنى بطاريتك يا جاويش . والآن يجب أن أطلع حدائى وجورنى . عليك أن تأخذ يا وطنن هذه الأشياء الى الطابق الأسفل . ذلك انى سأقوم بعملية تسلق . وأغمس مندبلى هنا في سائل الكريوزوت . نعم هكذا . والآن اصعد معى الى الصندرة العليا لحظة واحدة

وصعدنا الى الصندرة عن طريق الثقب . ووجه هولمز نور البطارية الى العلامات التي تشبه أقدام الأطفال المرترسة في التراب وقال :

— أريد منك أن تنتبه جيداً لآثار الأقدام هذه . ألا تلاحظ عليها شيئاً غريباً ؟ انظر جيداً

— إنها إما أن تكون أقدام طفل أو امرأة صغيرة السن أو الحجم

— ولكنى ألا تلاحظ عليها شيئاً فيما عدا صغر الحجم ؟

— إنها تبدو في نظرى كأى آثار أقدام أخرى

— بالعكس . انظر هنا ! هذا هو أثر القدم اليمنى في التراب . والآن سأطبع أنا في التراب أثراً من قدمى اليمنى العارية بجواره . انظر ! ألا ترى بينهما فرقاً ملحوظاً ؟

— بلى ! أصابع قدميك متقاربة بل متلاصقة . أما الأثر الأصيل فالأصابع فيه متفرقة تماماً ، بل متباعدة

٧٣

— صحيح . هذه هي نقطة الخلاف حقا . فتذكرها جيدا . والآن أرجو منك أن تسم رائحة هذه النافذة . وسأبقى أنا بعيداً ومعنى المندبل الملوث وعلقت ما طلبه مني فشممت من تلك النافذة المسحورة رائحة نفاذة أشبه برائحة القار وقلت له ذلك . فعلق قائلا :

— هذا هو الموضوع الذي داس عليه بقدمه وهو خارج . وإذا كنت أنت قد استطعت أن تتعقب هذه الرائحة . فليس هناك من شك ان توني لن يجد صعوبة في ذلك إطلاقا . والآن انزل وفك قياد توني ثم اخرج به الى الحديقة وانتظر

وما أن نفذت كلامه بكل سرعة حتى رأيته قد صار على سقف البيت وهو يتحرك فوق المنحدر كأنه دودة ضخمة . ثم غاب عن بصري وراء مجموعة من المداخن . وظهر بعدها ليحتج بمد برهة قصيرة على الجانب الآخر من السقف . فلما درت بالكب حول البيت وجدته جالسا على زاوية البيت فصاح بي :

— أهذا أنت يا وطنس ؟

— أجل

— هذا هو المكان . وما الذي أمامك هناك بلونه الأسود ؟

— برميل ماء

— هل فوقه الغطاء ؟

— نعم

— ألا تجد رائحة أسلم ؟

— كلا

— يا لئلك الملعون ! لقد صعد من موضع يحطم الرقاب . ويجب أن أكون أنا قادراً على المبوط حيث استطاع هو أن يصعد . وأظن ماسورة المياه هذه متينة . فلنهيض على كل حال !

وربط البطارية في عنقه . فرأيت على ضوءها يتسلق ماسورة الماء هابطاً على جانب الجدار . ثم قفز فصار فوق غطاء البرميل ، ومن هناك هبط على الأرض . ثم تناول مني جوربه وحذاءه فلبسهما وهو يقول :

— إن قوالب الطوب كانت غير متساكة تماماً . ويظهر انه وهو مستعجل

٧٤

أسقط هذا الشيء . وهو كما يؤيد تشخيصي للقضية على حد تعبيركم أتم معاشر الأطباء . فانظر بنفسك

فتناولت منه ذلك الشيء . فاذا كيس صغير منسوج من ألياف أعشاب جافة ملونة معلقة بها حبوب نباتية صغيرة كالخرز . وكان شكل هذا الكيس غريباً . يشبه الى حد ما شكل صندوق السجائر . وبداخله ستة من الشظايا المدببة من أحد طرفيها ، والدورة من الطرف الآخر . تشبه تمام الشبه الشظية التي كانت مغروسة في جمجمة برنولوميو شولتو ولما أبدت هذا الرأي ، هز هولمز رأسه وقال :

— إنها أشياء شيطانية . فاحذر يا وطنس أن تصيب نفسك . وإني لسعيد اني حصلت عليها . فمن المحتمل جداً انها كل رصيده . وهذا يقلل من احتمال اصابتي أو اصابتك . فأنا شخصياً أفضل أن أتصدى لرصاصة من نوع المارتيني على أن أتعرض لواحدة من هذه الشظايا . والآن يا وطنس هل في استطاعتك أن تتحمل مطاردة على الأقدام مقدار ستة أميال ؟

— طبعاً ...

— وسأفك الهيضة أتتحمل ذلك ؟

— أجل ...

فأقبل شرولوك هولمز على توني ليتولى تشخيصه المندبل المغموس في الكريوزوت . بينما وقف الحيوان وقد باعد بين قائمته الأماميتين وتصلب عنقه كأنه خير عريق يخصص عطراً غريباً أو نبيذاً تمتحن به خبرته . وبعد ذلك ألقى هولمز بالمندبل بعيداً . وربط حبلًا غليظاً في الطوق الجلدي الذي يحيط بعنق الكلب . وقاده الى قاعدة برميل الماء

وما أن فعل ذلك حتى صدرت عن الكلب سلسلة من النباح المرتفع ودس فيه في التراب ثم انطلق وهو على هذه الصورة في سرعة جعلت الجبل الطويل مشدوداً بيننا وبينه مع اننا كنا نجري بأقصى قوتنا

وكان الشرق قد بدأ يبيض قليلاً قليلاً فاستطعنا أن نتبين على مسافة ما أمامنا من الأشياء في الضوء الباهت . وقد أصبحت كتلة البيت الضخمة بنوافذه المغلقة من ورائنا

٧

وقادنا الكلب عبر الحديقة بحفرها وخنادقها . الى أن وصلنا الى السور المرتفع . فتبع توني أساسه وهو يتشمع الأرض بتدقيق . ثم وقف عند ركن كانت فيه شجيرة

وفي موضع التحام الحائطين كانت هناك قوالب من الطوب غير متلاصحة . وبعضها مزروع بيد فاعل . وكأنها قد استعملت بمثابة سلم . لأن الشفرات التي كانت في الجدار لم تكن لها أطراف حادة

وتسلق هولمز الجدار من هذه المواضع . ثم تناول الكلب مني وأزله في الجهة الأخرى من الجدار . ولما صعدت الى جواره فوق السور قال لي :

— في هذا الموضع أثر يد الرجل ذي الساق الخشبية . فها أنت ترى هذا الأثر الخفيف من الدم على الجير الأبيض . ومن حسن الحظ ان المطر منذ أمس لم يكن غزيراً . ولهذا سجد ان الرائحة قد بقيت على الطريق بالرغم من اقضاء ثمانية وعشرين ساعة

وأعترف هنا ان الشكوك ثارت في نفسي عند ما فكرت في حركة المرور الهائلة التي مرت على ذلك الطريق اللندني في تلك الفترة . بيد ان مخاوفي هذه سرعان ما تبددت . لأن توني لم يتردد لحظة واحدة . بل راح يهب الأرض وأفضه الى التراب كأنه كرة تتدحرج . فدل هذا على ان رائحة الكريوزوت النفاذة ظلت متفوقة على جميع الروائح الأخرى

وقال لي هولمز ونحن في الطريق :

— أرجوك يا وطنس ألا تتعجل اني أعتهد في نجاحي على مجرد المصادفة التي جعلت أحد الجانبين يلوث قدمه بهذا السائل الكباوي . بل ان تحت يدي من المعلومات ما يكفي من تعقبها من نواح مختلفة . ولكني طبعاً ما كنت لأتأخر عن انتهاز المصادفة المواتية التي وضعها حسن الحظ بين أيدينا وإلا كنت مجرماً في حق عملي طبعاً ، ولولا هذه المصادفة لكان اكتشاف الجناة في هذه القضية عملاً ذهنيًا خالصاً . وهو ما كنت أفضله طبعاً

— إنها مازالت ياهولمز قضية عقلية تحدى الذكاء . وإني أصارحك يا عمي الشديديد بالوسائل التي تتبعها للوصول الى نتائج مذهشة . فهذه القضية أغرب وأعجب القضايا التي نهضت بأعبائها . فاني مازلت أجهل كيف أمكنك أن تصف

٧٦

بكل دقة وكل ثقة الرجل ذا الساق الخشبية

— هذه مسألة أتفه وأبسط من أن تحتاج لتفسير يا بني ! ولست أحب الحيل المرسحة . فتخن نعلم ان ضابطين من حراس السجنين في الهند عرفوا سر كز مدفون في مكان ما . والذي رسم لها خريطة مكان الكز رجل انجليزى اسمه جونانان ممول . وأنت تتذكر جيداً اننا قرأنا الاسم على الرسم التخطيطي الذي وجد بين مخلفات الكابتن مورستان . فهو الذي وقع الخريطة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن شركائه الذين رمز اليهم بذلك الاسم الخالي « علامة الع » . وبناء على هذه الخريطة تمكن الضابطان ، أو على الأقل أحدهما ، من الحصول على الكز وإحضاره الى انجلترا . مع إخلاله فيما يلوح بشروط معينة كانت أساس الاتفاق الرابع . والآن يجب أن تتساءل لماذا لم يحصل جونانان ممول على ذلك الكز بنفسه مادام يعرف موضعه ؟ والجواب واضح وبديهي . فتاريخ الخريطة يدل على انها رسمت في فترة كان مورستان يتصل اتصالاً مباشراً بالمساجين . إذن جونانان ممول لم يتمكن من الحصول على الكز لأنه هو وشركاؤه كانوا مسجونين لا يستطيعون الذهاب الى موضع الكز بأنفسهم

— ولكن هذه مجرد فروض ياعرزى

— بل أكثر من فروض بكثير . إنها الفرض الوحيد الذي يغطي جميع العناصر ويشرحها . فلننظر الآن في مدى تلك التغطية . هذا هو الميجور شولتو ينعم بالسلام جملة سنوات ، سعيداً بامتلاك الكز . ثم إذا به يتلقى خطاباً من الهند يصديه بذعر شديد . فما هو ذلك الخطاب ؟

— أعتقد انه خطاب يدل على ان الرجال الذين أساء اليهم أصبحوا مطلق السراح . أليس هذا رأيك ؟

— أطلق سراحهم أو هربوا . والأرجح أنهم هربوا . إذ انه وهو الضابط السابق في حرس السجن كان حراً أن يعلم من بداية الأمر التاريخ الرسمى لانهاء مدة عقوبتهم القانونية . فلم يكن خروجهم ليقع منه موقع المفاجأة . وما الذي حدث له بعد ذلك ؟ إنه جعل يحتمل في فرع من رجل له ساق خشبية . وهذا الرجل أبيض اللون

٧٧

— وما الدليل على انه ابيض اللون وليس هديا ؟

— ألا تذكر انه أخطأ فظن رجلا من البائعين الجائلين له ساق خشبية هو عدوه العتيد ، فأطلق عليه رصاص مسدسه فلما ؟ وهذا يقطع بأن الرجل من البيض . ولما كانت الأسماء التي على الخريطة كلها أسماء هنود فيما عدا اسم واحد . فلنا أن نستخلص بكل ثقة ان هذا الاسم الأوربي الواحد هو اسم ذلك الأعرج . وهذا الاسم هو جوناثان سمول . فهل نجد في هذه السلسلة من الاستدلالات نفرة خطأ ؟

— كلا . بل أجدها واضحة عجوبة

— عظيم . والآن هيا بنا نضع تقسينا في مكان جوناثان سمول هذا . ولنحاول أن ننظر الى الموضوع من وجهة نظره . انه أتى الى إنجلترا وفي نيته هدف مزدوج . هدفة الأول أن يسترد ما يعتبره حقه الشرعى والهدف الآخر هو الانتقام من الرجل الذى أساء اليه

— هذا معقول تماماً

— وقد اكتشف سمول السكان الذى يقيم فيه شولتو . ومن الجائز جداً انه تمكن من إنشاء علاقات مع أحد اللصين في داخل الدار . فهناك مثلاً الساقى « لال راو » الذى لم تقع عليه عيوننا بعد . ومسز بيرلستون لا تثنى عليه كثيراً . ولكن سمول لم يستطع أن يعرف السكان الذى أخفى فيه الكنز . لأنه كان مجهولاً من جميع الناس ماعدا اللجور نفسه وخداماً واحداً كان قد مات . وبقاة وصل الى علم سمول ان اللجور في خطاته الأخيرة . ففزع خوفاً من أن يموت سر موضع الكنز معه . فالتجهم نطاق الحراس مجازفاً بنفسه وشق طريقه الى نافذة غرفة المحضر . ولم يحل بينه وبين الدخول اليها غير وجود ولديه التوأمين

— الى هنا والتسلسل معقول

— بيد ان غضبه الجنونى وحقدته على الميت حملاه على انتهاك حرمة ودخول مخدعه ليلا حيث فتنش في أوراقه الخاصة على أمل العثور على أى مذكرة تشير الى موضع الكنز . وأخيراً ترك هذه الورقة التي تدل على زيارته وهي « رقم ٤ » . ولا شك انه كان ينوى من قبل في حالة

٧٨

تمكنه من قتل اللجور أن يترك مثل تلك العلامة على الجثة للدلالة على ان القتل ليس جريمة عادية ، وإنما هو من وجهة نظر مجموعة الشركاء على الأقل عمل من أعمال العدالة والقصاص . وهي تزوات كثيراً ما تخطر للجرمين ليقنعوا بها أنفسهم أنهم ليسوا معتدين

— وهذا أيضاً معقول في تصوره

— والآن ماذا يستطيع جوناثان سمول أن يفعل بعد ذلك الفشل ؟ إنه لا يجد مناصاً من مواصلة الرقابة لعمليات الحفر والتنقيب عن الكنز . وربما كان يغادر إنجلترا ويمود في فترات . وأخيراً تم اكتشاف الصندرة السرية . وفي اليوم نفسه وصل إليه الخبر عن طريق جاسوسه في الدار . فلا بد من وجود مثل ذلك الجاسوس لتفسير وصول النبأ إليه في يومه

— هذا منطقي جداً

— ولما كان جوناثان لا يستطيع مطلقاً بساقه الخشبية أن يصل من الخارج إلى حجرة برتلوميو شولتو الشاهقة . فقد وجب عليه أن يتخذ له شريكاً عجيب الشأن ، تمكن من التغلب على هذه العقبة بصفات طبيعية فيه . بيد أنه وطأ قدمه العارية مادة الكربوزوت . ومن هنا نشأ دور توبي ، ومطاردة مقدارها ستة أميال بنوء بها ضابط جراح عمال على الاستدعاء يشكو من جرح في أحد ساقيه

— ولكن الشريك هو الذى اقترف الجريمة وليس جوناثان

— هذا صحيح . وأعتقد أنه اقترفها مخالفاً أمر جوناثان . فجوناثان لا يحمل أى حقد شخصى ضد برتلوميو شولتو . وكان يفضل الاكتفاء بتقييده وتكئيمه . لأنه لا ضرورة تضطره الى وضع عنقه في حل المشقة . ولكن الفطرة الوحشية لدى شريكه الغريب الأطوار انفجرت من غير ضابط وفعل السم فعله . فلم يجد جوناثان سمول بداً من ترك الورقة ، وتدلية صندوق الكنز الى الأرض بالجبال ، ثم تبعه هو عن نفس الطريق . وهذا هو تسلسل الحوادث كما تمكنت من حل طلاسه

— ولكن الأوصاف الأخرى التي ألصقتها به ؟

— انها كلها طبيعية . فهو لابد أن يكون في منتصف العمر ، لوحته

٧٩

بمضى على هدى أنفه المدسوس في الأرض . وكان في الحين بعد الحين يطلق نبتة عالية يدلنا بها على أنه صادف موضعاً فيه الرأعثة شديدة

واجترنا سترتهم ، وبركستون ، وكبرويل . فوجدنا أنفسنا في كنجنتون من جهة الشرق . ويظهر أن الرجلين اللذين تفتق أثرهما تبعاً منمرجات كثيرة غريبة الشكل . وربما كان دافعهما الى ذلك هو الرغبة في التضليل فانهما لم يسلكا طريقاً رئيسياً واحداً حينما كانت هناك طرق جانبية تقوم مقامه ومن كنجنتون انحدرا شمالاً نحو شارع بوند وشارع مايلز الى ميدان نايت . وهناك توقف توبي عن التقدم وراح يجرى الى الأمام والحلف وقد ظهرت عليه الحيرة الشديدة . ثم جعل يدور في حلقات وينظر الينا وكأنه ينتظر منا أن نرثى له ونشاركه في محنته فصاح هولمز :

— ماذا حدث لهذا الكلب ؟

— انه يبدو حائراً

— أجل . ولكن ما معنى هذا ؟ لا يمكن أن يكونا قد استقلا عربة من هنا ، أو طاراً في بالون هوائى

— ربما توقفنا هنا بعض الوقت

— أصبت . هاهو الكلب قد استرد ثقته وانطلق

وكان انطلاق توبي في هذه المرة سريعاً ، بما يدل على يقينه . وخيل الينا أن الرأعثة أصبحت في خياشيمه أقوى وأوضح . لأنه لم يعد يدس أنفه في الأرض ليتلمسها بل كان يجذب الجبل ويجرى بأخر سرعة

وتبينت في الوميض الحارق الذى انبعث من عيني هولمز أنه أصبح يعتقد أننا اقتربنا من نهاية رحلتنا . وكنا عندئذ نخترق « ناين إلز » الى أن وصلنا الى مخازن الأخشاب فيما يلي حانة النسر الأبيض مباشرة . وهناك رأينا الكلب يكاد يجن جنونه من الهياج ويصر على أن يخترق بنا البوابة المحيطة بمخازن أخشاب نلسن حيث كان النشارون قد شرعوا في عملهم اليومى فلما

وجعل الكلب يجرتنا وراءه في الدهاليز المتعرجة بين أكداش الاخشاب المنتظمة . حتى كأنها بيت التيه الذى تصفه الأساطير ، من دخل فيه لا يعرف طريقه الى الخروج الا بمعجزة

٨١

الشمس كثيراً بعد أن قضى مدة عقوبة طويلة في مكان محرق مثل جزائر انداماس

— وطوله ؟

— يمكن حساب الطول بسهولة من قياس بعد الخطوة . يضاف الى هذا أننا نعرف من كلام نادبوس شولتو أن الرجل الذى ظهر وجهه في النافذة ساعة وفاة أبيه كان ملتجياً . فنظر شعر وجهه كان أهم صفة انطبعت في ذاكرته وأظن أن هذه هي جميع الأوصاف

— والشريك ؟

— ليس في صدده شيء من الصعوبة . ولكنك ستعرف كل شيء عنه بعد قليل . ما أجمل هواء الصباح ! انظر الى هذه السحابة الصغيرة وكيف تسبح في الفضاء كأنها ريشة قرمزية من طائر نارى ! وهذه هي أشعة الشمس الحمراء تشق كبد السماء لتظلل لندن . وفي لندن ملايين من الناس . ولكن مامن أحد منهم خرج لمهمة في مثل غرابة مهمتنا

ثم راح يتحدث عن عظيمة الطبيعة ، وعن الفلاسفة الألمانية وعن فضل كار لايل في تعريف الانجليز بها . وبقاة سألتى :

— هل معك مسدسك ؟

— ليس معى إلا عصاى

— من المحتمل جداً أن نحتاج الى استعمال العنف حين نصل الى مكمنهما وسأترك لك أمر جوناثان . أما شريكك فسأطلق عليه الرصاص عند أول يادرة من يوادر الشر ولن أتردد

ثم أخرج مسدسه ووضع فيه الرصاص وأعادته الى جيب سترته الأمين من الخارج . وكنا طيلة ذلك الوقت نتبع توبي في الطرق الحلقية المؤدية الى المدينة وبدأنا ندخل في شوارع متشابكة ، بدأت موج بالسالبلة من العمال في أروضة البناء الناهبين الى أعمالهم . والنساء يفتحن الشبايك ويكتسن عتبات الدور وخدم المقاصف العامة بدأوا يفتحون أبوابها . وهناك بعض السوقة يخرجون من الحانات وهم مسحون لحاهم بأكمامهم بعد جرعة عاجلة من الجمعة على عادة اللدنيين في الصبح . بيد أن صديقنا توبي لم يكن يلتفت ميمناً ولا يساراً . بل

٨٠

وأخيراً نبح توبي نبحة نصر كأنها هتاف جنرال . ثم قفز في زهو فوق برميل ضخم كان لم يزل قائماً فوق عربة ترولي هي التي أحضرتة إلى ذلك الموضع ولسان يتدلى من التعب ، وعينين تومضان من السرور ، وقف توبي فوق غطاء البرميل ينقل نظره بين وبين صاحبي ، وهو ينتظر منا علامة من علامات الامتنان على ذلك الظفر العزير

وكانت جدران البرميل من الخارج ، ومجليات الترولي ، ملطخة بسائل أسود ، والهواء المحيط متقل رائحة نقاذة هي رائحة الكريوزوت ونظر إلى شرلوك هولمز مبهوتاً ، ونظرت إليه ببث ذلك ، ثم انفجرنا في آن واحد ضحك حتى كدنا نستلقي على قفوننا ولما هدأت قليلاً قلت له في شيء من السخرية :

— ماذا أيها الصديق ؟ هل فقد توبي شهرته بالعصمة والاعجاز ؟

فأجابني هولمز وهو يرفع الكلب من فوق البرميل ويجره بصعوبة باحثاً عن طريق الخروج من بين أكوام الخشب إلى خارج المخزن الترابي الأطراف : — بل إنه لم يخطيء . وكل ما هناك أنه تصرف على هدى فطرته . ولو أنك تصورت مقدار سائل الكريوزوت الذي ينقل في طرقات لندن كل يوم لأغراض الصناعة وغيرها ، لما عجبت لتشابك آثار رائحته . ومن هنا تتبع توبي أقوى تلك المسالك ، فقلينا أن نمود إلى حيث ظهرت عليه الحيرة كي يسلك بنا الطريق الآخر الذي كانت فيه الرائحة أضنف



الفصل الثالث عشر

عود على بدء

لم يكن أمامنا لحسن الحظ شوط كبير نرجعه القهقري إلى ذلك الركن من ميدان نايث حيث كان توبي قد وقف حائراً

ولما وصلنا إلى هناك جعل توبي يلف في دائرة واسعة ، ثم جمع رأيه واندفع في اتجاه جديد . قلت :

— يجب أن نحاذر كي لا يقودنا في هذه المرة إلى المصدر الذي جاء منه برميل الكريوزوت

— لقد تنهت لهذا . ولكنك تلاحظ أنه في هذه المرة يلتزم الطوار ، في حين أن البرميل لا يمكن أن يمر إلا في وسط الطريق . وهذا يدلنا على أن توبي يتبع أثر أشخاص يسرون على أقدامهم

وأبجى الرائد بنا نحو شاطئ النهر ، مخترباً ميدان بلونت وشارع الأمير . وفي نهاية شارع بروض اندفع الكلب إلى صفة الماء مباشرة حيث كان هناك كشك خشبي . وعند الشاطئ وقف توبي يزوم وينظر إلى مجرى الماء القاتم . فقال هولمز :

— إن الحظ بدأ نحاصمنا . لقد استقلاً قارباً

وبالقرب من هذا الموضع وجدنا بيتاً صغيراً مبنياً بالطوب ، ومن فوق النافذة الثانية لافتة من الخشب مكتوب عليها بحروف كبيرة :

— موردينا سمث . قوارب للإبحار بالساعة وباليوم

وفوق الباب وجدنا لافتة أخرى تفيد وجود لنش بخاري . كما رأينا بالقرب من الباب كومة من الفحم النباتي . فجعل شرلوك هولمز ينظر حوله

يعطه وقد دل وجهه على التجهم ثم قال :

— يبدو أن هذين الشخصين أذكي مما توقعت . وأحسب أنهما قد دربا طريقة للفرار من هنا قبل إتمام عملتهما

وكان هولمز يقرب من باب البيت حينما افتتح وظهر منه غلام متموج الشعر في السادسة من عمره يجري هارباً وفي أعقابها امرأة حمرأ الوجه أميل إلى البدانة وفي يدها صابونة وأسفنجة وأخذت تصيح :

— ارجع يا جاك لتتم حمامك . ارجع أيها القرد الصغير . فلو عاد أبوك ووجدك على هذه الصورة لجعل يومنا أسوداً

فتدخل هولمز في الحديث براءة قائلاً :

— يا للغلام الجليل الصغير ! يا لحديده التوردين ! أليس في نفسك شيء يا جاك فأعطيك إياه ؟

ففكر الغلام هنيئاً ثم قال :

— اعطني شيئاً !

— أليس هناك شيء تحبه أكثر من الشان ؟

ففكر قليلاً ثم قال :

— هات شيئاً إذن

— وهو كذلك . افتح يدك يا صاح !

ثم التفت إلى الأم وهو يضع نصف الريال البراق في يد الغلام وقال :

— يا له من غلام بديع يا مسز سمث !

— باركتك السماء يا سيدي . إنه غلام ليس في الحيرة من هو خير منه .

ولكنه متعب جداً يا سيدي . ولا سيما حين تطول غيبة زوجي أياماً متعاقبة

فأظهر هولمز خيبة الأمل وقال :

— أهو غائب يا سيدي ؟ كم يسوؤني هذا لأنني كنت أريد أن أتحدث

إلى مستر سمث

— إنه غائب منذ صباح أمس يا سيدي . وأقول لك الحق اني بدأت

أشعر بالقلق عليه . ولكن إن كنت تريد لاستئجار زورق يا سيدي فاني

أستطيع أن أقوم بهذه الخدمة

— كنت أريد أن أستأجر اللنش البخاري

— باركتك السماء يا سيدي . إنه رحل في اللنش . وهذا ما يحيرني . لأنني أعلم أنه لا يعمل فيه من الفحم إلا مقدار ما يكفي لتهايه إلى وولويتش وعودته منها

ربما اشتري ما يلزمه من الفحم من أي مكان على شاطئ النهر

— ربما يا سيدي . ولكن ليست هذه عادته . فهو يكره الشراء بالقطاعي ويشكو من مبالغتهم في أسعار الفحم هناك . أضنف إلى هذا يا سيدي

أنني لأحب أصحاب السيقان الخشبية . ولا سيما هذا الرجل القبيح الحلقة الغليظ الصوت . ولست أدري ماذا يريد هنا

فتصيح هولمز الدهشة وقال :

— رجل له ساق خشبية ؟

— نعم يا سيدي . وله وجه كوجه القرد . وقد أكرر التردد على زوجي أخيراً ، وكان هو الذي أفضله ليلة أمس . وكان زوجي يعلم أنه سيأتي ، لأنه

أعد للراجل البخارية في اللنش من السماء . وأقول لك الحق يا سيدي انني لأشعر بارتياح لهذا الموضوع

فهز هولمز كفيه وقال :

— ولكنك ترعيبين نفسك يا مسز سمث بأشياء لا أهمية لها . فمن أدراك أن الرجل ذا الساق الخشبية هو الذي جاء ليلة أمس ؟ لست أرى دليلاً على هذا

— كان الظلام حالكا ولكنني عرفت صوته يا سيدي . فصوته فريد في خشوته . وجاء فطرق النافذة في نحو الثالثة صباحاً وجعل يصيح طالباً من زوجي أن يسرع بالتهوض . فأيقظ زوجي ابنه الأكبر جيم . وخرجا معاً

من غير أن يقولوا لي أي كلمة . ثم سمعت صوت الساق الخشبية وهي ترن فوق الصخور

— وهل كان ذوالساق الخشبية بمفرده ؟

— لا أجزم يا سيدي بشيء . لأنني لم أسمع سواه

— يؤسفني يا سيدي أن مستر سمث غائب . فقد كنت أريد اللنش البخاري

اليوم . لأنى سمعت عن هذا اللش ثناء كثيراً . ساعدينى يا سيدى على تذكر الاسم فقد نسيت

— أورورا يا سيدى

— فعلا . أليست هى تلك السفينة العتيقة الخضراء ذات الخط الأصفر ؟

— كلا يا سيدى . بل ان لنشنا أنيق جداً ورشيق . وقد طلى أخيراً باللون الأسود وفيه خطان أحمران

— شكراً لك . أرجو أن أحضر قريباً . وأن تكونى قد اطمأنت على مستر سمث . وسأهبط أنا النهر الآن وإذا عثرت بأورورا سأخبر مستر سمث أنك مشغولة البال . إن مدختها سوداء أليس كذلك ؟

— سوداء وفيها شريط أبيض

— وهو كذلك . طاب صباحك يا مسز سمث . إنى أرى هناك نوتياً معه زورق ياوطنس وستستخدمه فى عبور النهر

وفى طريقنا عبر النهر قال لى هولمز :

— إن المهم مع الناس الذين من هذا القبيل ألا تدعهم يشعرون أن المعلومات التى لديهم يمكن أن تكون لها أى أهمية عندك . فانهم إن شعروا بذلك أغلقوا أفواههم كما تفعل المجارة . أما إن أصغيت وكأنك غير مكترث أو متضايق حصلت على كل ما تريد من معلومات

— إنها معلومات ثمينة جعلت طريقنا واضحاً

— ماذا تصنع إذن ؟

— أرى أن نستأجر لنشاً ونهبط النهر فى أعقاب أورورا

— إن التتعب مستحيل . فهناك مخازن كثيرة للانشات يمكن أن يكون قد اختفى فيها فيما بين هذا الموضع وجرينتش . وفيها وراء الكبرى متهات كثيرة من أما كن الرسو بحيث تضى أياماً وأياماً فى البحث بمفرده

— إذن نستعين بالبوليس ؟

— كلا . فانى لا أريد أن أستعين بأئلى جونس إلا فى اللحظة الأخيرة . ومرادى أن أصل إلى لب هذا الموضوع من غير الاستعانة به بمد أن قطعنا كل هذا الشوط البعيد

— هل ننشر إعلاناً نطلب فيه معلومات من أصحاب المراسى ؟

— هذا أسوأ وأسوأ ! إن صاحبنا سيعلمان من الاعلان أننا نتعقبهما . فيعادران البلاد على القور . بل أخشى أن يكونا قد غادرا البلاد الآن . لولا أن شعورهما بالأمان سيجعلهما لا يتعجلان . وأعتقد أن نشاط اثنى جونس سيجعله يدلى برأيه فى القضية إلى الصحف . فيطمئن صاحبانا إلى اتجاه التحقيق وجهة خاطئة

وكان الزورق قد رسا عند ملبك فأسألته :

— إذن ماذا صنعت ؟

— تركت عربة أجرة وتعود إلى البيت فنتناول طعام الافطار ثم ننام ساعة . لأنه مكتوب علينا أن نقضى ليلة أخرى على أقدامنا وركبنا عربة صادقتنا . وجعلنا توبى فى وسطنا . وعند أول مكتب تلفراف استوقف هولمز العربة وقال لى :

— سنستقي توبى لأنه قد يشغنا أيضاً . وسأدخل لأرسل برقية

ولما عاد سألنى ونحن نستأقب السير :

— أتدرى لمن أرسلت برقيتى ؟

— لا أدرى

— أتذكر تلك الفرقة من العلمان التى استخدمتها لجمع المعلومات فى قضية جيفرسون هوب ؟

— طبعاً أذكرها

— لقد بعثت إلى رئيسها كى يوافينى وأستعين به . وأعتقد أنه سيكون عندى قبل أن تنتهى من إفطارنا

الفصل الرابع عشر

فرقة شارع بيكر

كانت الساعة الآن تقارب التاسعة . وقد بدأت أشعر برد فعل قوى بعد الإثارات المتلاحقة طوال تلك الليلة . كنت أعرج فى مشيى ، وقد هدنى التعب ، وخيم الضباب على خلايا دماغى

ولا عجب فى ذلك . فليست عندى الحماسة التى تدفع صاحبي الى العمل بغير كل . ولا أستطيع أن أنظر إلى السألة باعتبارها مشكلة ذهنية مجردة . وأما فيما يتعلق بمصرع برنولميو شولتو ، فانى لم أسمع عنه إلا القليل ، وهو لا يسر ولا يثير الرحمة أو العطف . بل أعترف أنى لم أشعر بمحقد شديد على قاتله

أما من جهة الكنز فهذه مسألة أخرى . فانه — أو جزء منه على الأقل — حق شرعى للآنسة مورستان . فطالما كانت هناك أقل فرصة لاسترداده ممن استولوا عليه ، فأنا مستعد لتخصيص حياتى لهذا الغرض

ولا يفوتنى طبعاً أن أذكر أن نجاحنا — إن قدر لنا النجاح — فى العثور على ذلك الكنز ربما قام حالاً بينى وبين الوصول إليها . ومع ذلك فلا شك أنها أمانة دينية لا تليق بمحب أن تتأثر جهودى بمثل ذلك الحاطر . فان كانت لدى هولمز القدرة على الوصول إلى المجرمين ، فلدى دافع أقوى من ذلك عشر مرات للعثور على الكنز

وكان للحمام الذى أخذته فى شارع بيكر ، وتبديل الثياب الكامل ، أثرها المدهش فى إنعاش قواى . فلما توجهت إلى حجرة جلوسنا وجدت

الإفطار معداً ، وهولمز يصب القهوة فى الفناجين . فبادرنى قائلاً وهو يضحك مشيراً إلى صحيفة مفتوحة :

— ها هى ثمرات نشاط صديقنا جونس بادية فى حديثه إلى المخبر الصحفى النشط . ولكنك طبعاً أصبت من القضية ما فيه الكفاية . ويحسن أن نتناول أولاً نصيبك من البيض واللحم

فتناولت الصحيفة من يده وقرأت المنشور فيها تحت عنوان كبير هو « قضية غامضة فى زوود العليا » . وهو كما يأتى مع الإيجاز :

« فى نحو الساعة الثانية عشرة من منتصف ليلة أمس وجد المستر برنولميو شولتو صاحب بوندتشرى لودج فى زوود العليا ، مقتولاً فى حجرته فى ظروف تدل على وقوع جريمة بشعة . وقد بلغنا أنه لم يثر على آثار ظاهرة تنبئ عن مقاومة . ولكن اتضح اختفاء مجموعة ثمينة جداً من الجواهر الهندية كان القتل قد ورثها عن والده

« وأول من اكتشف الوفاة هو المستر شرلوك هولمز وصديقه الدكتور ولسن اللذان توجهتا إلى هناك بدعوة من مستر نادبوس شولتو شقيق التوفى . ولسن الحظ كان المستر اثنى جونس المخبر الجنائى المعروف موجوداً بالصادفة فى مركز بوليس زوود ، ونُفخ إلى مكان الحادث فى مدى نصف ساعة من التبليغ به

« واتجهت فطنته المعروفة ومواهبه المدربة الوجهة الصحيحة فى الكشف عن الجناة . واتهمت تجرباته إلى القبض على شقيق التوفى المدعو نادبوس شولتو ، وعلى مشرفة الدار مسز بيرنستون ، وعلى ساق هندى اسمه لالراو ، وعلى بوابت من الصارعين اسمه ماك موردو

« ومن المؤكد أن اللصوص كانوا يعرفون البيت جيداً . لأن دقة مستر جونس البالغة فى الملاحظة بينت له أن اللصوص لم يكونوا ليستطيعوا الدخول من الباب أو من النافذة ، وإتمامهم دخلوا إلى الحجرة من سقف البناء عن طريق باب مسحور يفضى إلى صندرة سرية تتصل بالحجرة التى وجدت فيها الجثة

« وهذه الحقيقة التى ندين بها المهارة مستر جونس تثبت بصورة قاطعة

أن الجريمة لم تكن عملية سطو مرجلة *
« والمنتظر أن تسفر التحقيقات عن اعتراف اللقبوس عليهم أنهم اتفقوا
فيما بينهم ودبروا ثم نفذوا القتل بقصد السرقة »
ولما رأى هولمز فرغت من قراءة هذا الكلام رفع وجهه عن فنجان
القهوة ياسماً وقال :

— أليس هذا بديعاً ؟ ما رأيك في ذلك ؟
— رأيي أننا نحمد الله لأن فطنة مستر جونس الشهورة لم تهده للقبض
علينا نحن الاثنين بما أننا كنا في الدار ساعة الجريمة
— هذا ماخطر ببالى . بل إنى لا أضمن سلامتنا الآن إن أصابت جونس
نوبة أخرى من نوبات الفطنة والنشاط ، فيستدرك ما فات
وفي هذه اللحظة رن جرس الباب رنيناً شديداً ، وصمعت مسزهدسن ربة
الدار ترفع صوتها بما يشبه العويل ، قهضت قائلاً :
— بحق السماء يا هولمز ، أحسب نبوءتك صحت
— لا تخف . بل يصل الأمر بعد إلى هذا الحد من السوء . إنما هي فرقة
المتشردن الصغار بقيادة هيجنز حضرت لتلق الأوامر
وفي الحال سمعنا أصوات مجموعة من الأقدام الحافية تصعد السلم ،
وجلبة أصوات مرتفعة ، ثم اندفع نحونا حفنة من غلمان الشوارع المهلهلي
الثياب . وأدهشنى أن أجد لديهم فكرة عن النظام رغم مظهرهم القبيح .
إذ سرعان ما وقفوا صفاً كالجنود . ثم تقدم أطولهم وأكبرهم سنأ وقال في
رزانة مضحكة :

— تلقيت رسالتك يا سيدى وأحضرت الفرقة في الحال . ثلاثة شلنات
ونصف لثن التذاكر
— هاك هي . وفي المستقبل يا هيجنز يكفي أن يتصلوا بك وحدك ولا لزوم
لحضورهم . فأنت الذى تتلقى منى الأوامر بمفردك . لأنى لا أستطيع أن أسمع
باحتقار البيت على هذه الصورة . وعلى كل حال يحسن أن تسمعوا جميعكم
الأوامر في هذه المرة . إنى أريد أن أعثر على مكان لنش بخارى اسمه اورورا .

٩٠



« وتناولت الصحيفة من يد هولمز وقرأت النشور فيها عن تلك القضية القامضة »

— إنه متوحش ! لا بد أنه من الخلوقات الهندية العجيبة
— هذا ما خطر لى في أول الأمر . ولكن هذه الأقدام تختلف عن
أقدام الهندوس الطويلة النحيلة . أما الهنود المسلمون فيتعاون الصنادل
ولابمخون حفاة . فاذا مشى أحدهم حافياً وجدت الأصابع متقاربة فيما عدا
الابهام الذى يفصله عن بقية الأصابع شريط الصندل . وأما هذه القذائف
فلا يمكن استعمالها إلا من آلة كالزمار . فأين يمكن أن يوجد ذلك النوع من
التوحشين ؟

— ربما في أمريكا الجنوبية

ثم هولمز يده وتناول مجلداً من دائرة المعارف وفتح صفحة قرأ فيها :

« جزائر اندمان . تقع على بعد ٣٤٠ ميلاً إلى شمالى سومطرا في خليج
البنغال . مناخها رطب . شواطئها مرجانية ؛ حولها سمك القرش . وبها سجن
كبير (ليمان) . والأهالى الأصليون ربما كانوا أصغر أقزام فى العالم بعد البوشمان
الإفريقيين . ومتوسط طول الشخص البالغ متر . ولكن يوجد من البالفين
من هم أقصر من ذلك بكثير . وهم قوم فيهم شراسة طبيعية . وإن كان من
الممكن أن يخلصوا الود بشكل غير مألوف لمن ينجح في كسب قلوبهم . واشكالهم
قبيحة وملاحظهم ملتوية وجماجهم مشوهة . ويمتازون على الخصوص بأيد
وأقدام متناهية فى الصغر . يهاجمون البيض بصمى لها رؤوس من الحجر . أو
يقذفونهم بقذائف مسمومة . ثم يأكلون لحومهم »

وبعد أن أقتل هولمز المجلد رفع رأسه وقال لى :

— قوم فى غاية اللطف والحق يقال يا عزيزى وطنى ! وأظن أنك
لاحظت تلك العصا التى تنتهى برأس من الحجر التى وجدت على المائدة بجوار
القتيل . فلا شك أن جوانان سمول الذى كان سجيناً فى جزائر اندمان قد
استعان بحليف من هذا الطراز البديع . ولكنى أراك تنفوس وأنا أتكلم . فأرقد
على هذه الأريكة وسأحاول أن أساعدك على النوم العميق بالعزف على القيثارة
وكان عزفه من البراعة بحيث استغرقت على القور فى أحلام رأيت فيها
وجه مارى مورستان يشرق بالانسام ...

٩٣

بمسلكه رجل اسمه موردهاى سمث . واللمنش أسود به خطان أحمران . ومدخته
سوداء بها شريط أبيض . واللمنش فى نهر التاميس فى مكان غير معلوم . فيجب
أن يكون أحدكم عند مرمرى موردهاى سمث امام ميلينك ليخبرنا فى حالة
وصول اللنش . . . والباقون يقسمون أنفسهم للتعقب على الشاطئين فى وقت
واحد بكل دقة . ويجب أن تبلغنى الأنباء أولاً بأول . مفهوم ؟

— نعم يا سيدى

— والأجور كالمعتاد . وسيظفر الغلام الذى يجيد اللنش بجنيه إضافى .
وهاك أجر يوم مقدماً . والآن انطلقوا

وتقد كلا منهم شلناً فاندفعوا يهبطون السلم . وقال لى هولمز وهو ينهض
عن المائدة ويشعل بيته :

— سيعثرون على اللنش إن كان طافياً على وجه الماء . فليدهم قدرة غريبة
على الذهاب إلى كل مكان والتسلل والملاحظة . ولهذا أتوقع أن يأتونى بنتيجة
شافية قبل هذا المساء . وفى أثناء ذلك ليس أمانتنا سوى أن نتنظر النتائج .
فنحن لا نستطيع أن نستأنف المطاردة من غير أن نعثر على أوروبا أو على
موردهاى سمث

— سأطعم توبى بفضلات المائدة . ولكن هل ستنام يا هولمز ؟

— كلا . لست متعباً . فان بنيتى غريبة التكوين . ولا أذكر أنى شعرت
يوماً ما بالنعب من العمل . وإن كان الكسل هو الذى يعنى بل برهقى .
سأذهب وأدخن وأنا أفكر فى هذه المسألة الغريبة التى ورطتنا فيها بحملتنا
الحسنة . وليس الذى يعيرنى هو الرجل الأعرج . لأن عدد ذوى السيقان
الحشوية محدود . ولكن شريكه الآخر هو المجر حقاً

— عدنا مرة أخرى للرجل الآخر !

— لأرشدك على أطيل حيرتك فى أمره . ولهذا سأراجع معك ما لدينا
من الوقائع عنه . فماذا تذكر من ذلك ؟

— قدم صغيرة . وأصابع متباعدة

— وهذا يدل على أنه لم يلبس فى حياته حذاء . كما نعلم أيضاً أنه يجيد
التسلق ، ويستعمل قذائف من الشوك المسموم . فإذا تستنح ؟

٩٢

رحلة في الفجر

كان الوقت متأخراً بعد الظهر حينما استيقظت من نومي وقد استرددت قواي وانتعش تفكيري . وكان شرلوك هولمز ما يزال جالساً حيث تركته بالضبط فبا عدا أنه ألقى ثيابه جانباً واستغرق في كتاب . فلما تحركت نظر إلى وتلاحظت أن وجهه قائم مضطرب . وقال لي :

— لقد نمت نوماً عميقاً . وخفت أن يوقظك كلامنا
— لم أسمع شيئاً . هل وصلت أخبار جديدة إذن ؟

— كلا للأسف . وأنا أعترف أنني مندهش وأشعر بخيبة أمل . وكنت أتوقع وصول شيء معين قبل هذه اللحظة . ولكن هيجنز كان هنا منذ قليل ليرفع تقريره . فقال لي إنه لم يعثر على أثر للنش . وهذا فشل مثير ، لأن كل ساعة لها أهميتها الكبيرة

— هل أستطيع أن أصنع شيئاً ؟ لقد استرددت نشاطي الآن تماماً وأصبحت على تمام الاستعداد لليلة أخرى من العمل

— كلا لا نستطيع أن نصنع شيئاً . ليس أمامنا سوى أن ننتظر . فلو خرجنا نحن فربما أتت الرسالة بالعثور على النش في غيتتنا ، فيكون هذا سبباً في التمثيل . وتستطيع أنت أن تصنع ما تشاء أما أنا فسأبقى هنا للحراسة مستعداً لأول إشارة

— إذن أسرع أنا إلى كامبرويل لزيارة مسز سيسيل فورستر . فقد طلبت مني بالأمس أن أزورها ووعدها بذلك فسألني هولمز وقد لمت في عينه ابتسامة خبيثة :

— زور مسز سيسيل فورستر ؟

— والآنسة مورستان أيضاً بالطبع . فهما متلهفتان على معرفة الأخبار — لو كنت في مكانك لما أخبرتهما بشيء كثير . فالنساء لا يمكن الوثوق بهن كل الثقة حتى خيارهن

فلم أعلق على هذا الرأي المتطرف بل قلت :

— سأعود إلى هنا في خلال ساعة أو ساعتين

— وهو كذلك . حظ سعيد . ولكن أرجو إذا كنت ستعبر في طريقك النهر أن تعيد نومي إلى صاحبه . فلا أظن أننا من المرجح أن نحتاج إليه الآن فأخذت الكلب معي وتركته لدى صاحبه وأعطيته نصف جنبه ذهباً ثم توجهت من حارة بنشين إلى كامبرويل ، حيث وجدت الآنسة مورستان متعبية قليلاً بعد مغامراتها الليلية ، ولكنها متشوقة جداً لسماع آخر الأنباء وكذلك كانت مسز فورستر شديدة التطلع . فأخبرتهما بكل ما صنعنا ، مغفلاً بالطبع المواضيع البشعة من اللأسة . حين تكلمت عن وفاة المستر شولتو لم أذكر شيئاً عن طريقة مصرعه على وجه الدقة . ومع هذا التهور كان فيها رويته الكفاية لازعاجهما وإبارة دهشتها . فصاحت مسز فورستر :

— يا لها من قصة ! سيده مغبونه ، وكثر قيمته نصف مليون ذهباً ، وآكل لحوم البشر الأسود ، ووعده له ساق من الخشب !

فأضافت الآنسة مورستان وهي ترمق بنظرة مشرقة :

— وهناك أيضاً فارسان شهمان يخفان لنجدتها

— الحق يا ماري أن حظك يتوقف على ثمرة جهودها . ولا أظنك مع هذا مكترثة حتى الاكتراث لما يجري . تصوري ما يترتب على هذا الثراء الفاحش ، بحيث يكون العالم كله تحت قدميك !

وشعرت بفرح يهز قلبي لما لاحظته من أنها لم تتبجح كثيراً لهذه التصورات والآمال ، بل على العكس أومأت برأسها في كبرياء ، كأن هذه الأمور لا تبنى في نظرها شيئاً ذا بال ، وقالت :

— فلتك كل من أجل مستر نادبوس شولتو . أما ما عدا ذلك فليست له

— انك ترهق نفسك يا رجل . فقد سمعتك تمشي طول الليل

— لم أستطع أن أنام . فهذه المشكلة الجهنمية تأكل ذهني . ومن الفجع حقاً أن تقف عتبة كهذه في طريقنا بعد أن تغلبنا على جميع العقبات الأخرى فأنا أعرف أشخاص الجناة ، والنش ، وكل شيء ، ومع هذا لا ألتقي أخباراً وقد أطلقت عملاء آخرين واستعملت كل وسيلة في استطاعتي . وتم تفتيش شاطئ النهر كليهما . ولكن لا أخبار . ومسز سمث لم تسمع شيئاً عن زوجها حتى أوشكت أن أعتقد أن النش غرق بمن فيه ، لولا وجود ما يقض ذلك — ولماذا لا تكون مسز سمث قد ضللتنا ؟

— كلا . هذا مستبعد لأنني قمت بتجريات واتضح وجود لنش بهذه الصفة — لعله اتجه في الناحية الأخرى من النهر

— وهذا أيضاً فكرت في امكانه . وكلفت فرقة بالبحث في ذلك الاتجاه لغاية ريتشموند . فإذا لم تصلنا أنباء اليوم سأضطر للتحرك بنفسي للبحث عن الرجلين لا عن النش . ولكننا بالتأ كيد نسلم شيئاً اليوم بيد أننا لم نسمع أي كلمة لا من هيجنز ولا من العملاء الآخرين . ونشرت معظم الصحف مقالات عن مأساة زورود . وكان الجمع قساة على نادبوس شولتو باعتباره قاتل أخيه

ولم تنشر أي تفاصيل أخرى سوى أن التحقيق سيبدأ في اليوم التالي . وعند الغروب ذهبت إلى كامبرويل كي أبلغ السيدتين أنه لا جديد . وعند عودتي من هناك وجدت هولمز في حالة ضيق شديد وثوبو همة . حتى أنه لم يكن يرد على أسئلتني . وراح يشغل نفسه بتحليلات كيميائية تصاعدت منها أبخرة لها رائحة كريهة طردتني من الحجرة

وحتى الساعات الباكرة من الصباح كنت أسمع وأنا في حجرتي صليل أنابيب الاختبار التي أنبأتني عن استمراره في تجاربه

وعند الفجر صحت مندوراً لأراه واقفاً بجانب فراشي وقد ارتدى حلة محار رثة ، وربط حول عنقه منديلاً خشبياً ، وقال لي :

— سأذهب إلى النهر يا وطني . فقد قلبت السألة في ذهني طويلاً ولا أجد لها الا تفسيراً واحداً يستحق أن نجربه

أى أهمية . لأنه في الواقع سلك سلوكاً مشرقاً ورفيقاً على طول الخط . ومن واجبا ان نخلصه من هذا الاتهام الفظيع الظالم وسحرتني الحديث فل أشعر بمرور الوقت ، ولم أعادر كامبرويل إلا عند الأصيل . وكان الظلام مطبقاً ساعة عودتي إلى البيت

وعند دخولي رأيت كتاب صاحبي ويئته بجوار مقعده . أما هو فكان قد اخفي . فقطعت أفئتي عن مذكرة ربما تركها لي ، فلم أجد شيئاً من ذلك ، فقلت لمسز هدسون حين صعدت لاغلاق التوافذ :

— أظن مستر شرلوك هولمز غادر الدار ؟

فأجابني وهي تخافت من صوتها بصورة ذات مغزى :

— كلا ياسيدي . بل ذهب إلى حجرته . وأنا في الواقع قلقة على صحته — ولماذا يامسز هدسون ؟

— لما يديه من غرابة . فبعد أن خرجت سيادتكم جعل يمشي ويتمشي جيئة وذهاباً وذهاباً وحيئة إلى أن أعيانى وقع خطواته للتصل . ثم سمعته يكلم نفسه بصوت مسموع . وكلما رن جرس الباب أسرع إلى رأس السلم يسألني من الطارق . وها هو الآن قد أعلق على نفسه حجرته . ولكنني أسمعه يمشي كما سابق شأنه . فعسى ألا يكون على شفا المرض . وغامرت بالتحدث إليه في شأن تماطى دواء مهدى . فنظر إلى ياسيدي نظرة فظيعة ، حتى أنني لا أعرف إلى الآن كيف خرجت من الحجرة !

— لا أعتقد أن هناك مبرراً لقلقك يامسز هدسون . فكثيراً ما رأيت على هذه الصورة من قبل . وكل ما هناك أن في دماغه مسألة تشغله ولا تدع له مجالاً للراحة إلى أن يجد لها حلاً

والحقيقة أنني حاولت أن أخفف وقع الحالة على ربة الدار الموقرة ولكنني كنت في الوقت نفسه غير مستريح ، لأن وقع خطواته التواتر ظل مستمراً برتابته الممزقة للأعصاب ساعات الليل الطويلة . فأدر كنت أن أعصابه متمردة على الجلود الذي فرضه الموقف عليه إلى الصباح

وعلى مائدة الافطار بدا لعيني في حالة شديدة من الإعياء ، وعلى وجنتيه احترقان أشبه باحترقان الحمى ، فقلت له

— في امكاني طبعاً أن آتي معك ؟

— كلا . فوجودك هنا أفيد كي تتلاني وتلتقي الأبناء التي ستصل أثناء النهار وأريد منك أن تقض جميع الرسائل والبرقيات ، وأن تتصرف حسب رأيك عند وصول أي خبر . فهل أستطيع أن أعتد عليك ؟

— بكل تأكيد

— وأخشى أنك سوف لا تستطيع أن تتصل بي تلغرافياً . لأنني لا أدرى على وجه التحديد أين يمكن أن تجدي . وإذا خالفتي الحظ سوف لا يطول غيابي . ولكن سأحصل على أبناء بأي شكل قبل عودتي

□

وحق ساعة الافطار لم أسمع شيئاً عنه . فلما جلست الى المائدة فتحت صحيفة اللواء فوجدت اشارة جديدة الى القضية

— فيما يخص بأساسة زروود العليا ، عندنا من الأسباب ما يجعلنا على الاعتقاد بأن هذا الموضوع يتجه الى التعقيد والاهتمام أكثر مما كان مظهرتاً في مبدأ الأمر . فقد ظهرت أدلة تثبت استحالة اشتراك مستر نادبوس شولتو في هذه الجناية بأي شكل من الاشكال . ولهذا أطلق سراحه هو ومشرفة الدار مسز بيرنستون أمس مساء . والمعتد أن لدى البوليس خيوط تقضي الى الجناية الحقيقيين ، والمأمول في همة مستر اثلي جونسن من رجال سكوتلند يارد أن يستغل هذه الخيوط بما عرف فيه من نشاط وحكمة . ومن المنتظر أن يقبض على مزيد من الأشخاص في أي لحظة

وسرني كثيراً اطلاق سراح صاحبنا شولتو . وإن كنت لا أدرى ما هي هذه الخيوط الجديدة . وغلب على ظني أنها الفاظ محفوظة بتعني بها البوليس كما وقع في ورطة . وألقيت الصحيفة من يدي فوق المائدة . وإذا عني تقع على إعلان في العمود المخصص للإعلان عن الكوارث والاستعانات

— مفقود بحار اسمه موردهخي سمث . وكذلك ابنه جيم . غادرا مرسى سمث في نحو الساعة الثالثة من صباح الثلاثاء الماضي في لنش بخاري اسمه أودورا ، ولونه أسود به خيطان أحمران واللدخنة سوداء وبها شريط

أيض . وسيدفع مبلغ خمسة جنيهات لأي شخص يستطيع الأدلاء بأي معلومات مفيدة في العثور على المفقودين ، وذلك لمسز سمث في مرسى سمث أو في نمره

٢٢١ مكرر بإشراع بيكر

وأدرت على الفور أن هذا الاعلان من صنع شرلوك هولمز . فالعنوان المذكور في الاعلان بإشراع بيكر دليل كاف على ذلك . ووجدتها حيلة بارعة ، لأن الهاريين يمكن أن يطالوا هذا الاعلان فلا يرون فيه أكثر من التلقط الطبيعي الذي تحس به زوجة لفقد زوجها أو اختفاء آثاره

وكان هذا النهار طويلاً ملاً . فكلما طرق الباب ، أو سمعت خطوة مرتفعة في الشارع ، خيل الى أن هولمز عائد ، أو أن أحداً جاء تلبية لاعلانه

وحاولت أن أقرأ . ولكن أفكارى ظلت تشتت وراء المجرمين اللذين يشغلان بالنا . ورحت أساءل هل هناك ثغرة تسرب منها الخطأ الى البناء المنطقي الاستنتاجي الذي أقامه صديق . وهل ليس من الممكن أن تكون كل النظرية التي صنعها قائمة على مقدمات وهمية . ولا سيما أن الحياة الواقعية ليست دائماً متمشية مع المنطق العقلي المجرد

ولكن جميع حلقات تلك السلسلة المنطقية تشكلت وتكونت وتشابكت بين سمي وبصري . ولست أجد فيها عيباً



الفصل التاسع عشر

زائر غامض

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر سمعت دقة عالية من جرس الباب . ثم صوتا مرتفعاً آمراً في البهو . ولم كانت دهشة عظيمة حيناً صعد الى حيث كنت أجلس في قاعة الاستقبال شخص خضير الشأن ، هو مستر اثلي جونسن بلحمه ودمه !

وكانت لهجته في هذه المرة تختلف كل الاختلاف عن لهجة ذلك الأستاذ الوائق من سداد رأيه حين تناول قضية زروود العليا . فهو في هذه المرة متواضع وديع ، بل يكاد ينزل الى حد الاعتذار . فبدأت بقوله :

— طاب يومك يا سيدي طاب يومك ، مستر شرلوك هولمز خرج فيما أظن ؟

— نعم . ولست متأكداً متى سيعود ، ولكن ربما سمح لك وقتك بالانتظار . اجلس في هذا المقعد وجرب سيجاراً من هذه

فمسح وجهه بتديل كبير أحمر وقال :

— شكرآ لك . لا مانع عندي

— هل لك في قذح من الويسكي والصودا ؟

— نعم . نصف قذح . إن الجو حار بالنسبة لهذا الفصل من السنة وقد تعبت كثيراً وأفقتني هذه القضية . أنت تدرى طبعاً نظريتي فيها ؟

— سمعتك تعرضها

— لقد اضطرت أمام الوقائع أن أعيد النظر فيها . وكنت قد أحكمت خيوط الشبكة حول مستر شولتو عندما أفلتت من فتحة في وسطها . إذ يمكن

من اثبات وجوده وقت الجريمة إيجاباً لا محال لثقه في مكان بعيد عن مسرح الحادث . فبذ غادر حجرة أخيه كان تحت سمع شهود عدول هنا أو هناك . إذن لا يمكن أن يكون هو الذي تسلق السقوف ودخل من الباب المسجور . انها في الواقع قضية حالكة تكتنفها الظلمات . ومركزي الأدبي كمتحرف أصبح في كفة الميزان . ولم يسعدني أن أتلق بعض العون

— كلنا نحتاج للعون أحياناً

— ان صديقك مستر شرلوك هولمز رجل مدهش يا سيدي . وقد شهدته بنفسى يتناول قضايا كثيرة غامضة . ولكنه لم يفشل في واحدة منها . قد يكون شاذاً في وسائله . متسرعاً في التوثب الى النتائج وتكوين النظريات . ولكنه على العموم مخبر ماهر . وقد تلقيت برقية منه هذا الصباح فهمت منها أنه عثر على طرف خيط في هذه القضية . وهالك البرقية

وأخرج من جيبه البرقية فأعطاني إياها وكانت تحمل توقيع الثانية عشرة ظهراً ومرسلة من مكتب بوبلر . ونصها كالآتي :

— اذهب الى شارع بيكر فوراً . ان كنت لم أعد فانتظر عودتي . أنا في آثار العصابة . تستطيع أن تأتي معنا الليلة إن أردت حضور ختامها فلما قرأت البرقية قلت له :

— هذا كلام يبشر بالخير . فلا بد أنه عثر على طرف الخيط

— من الجائر أن يتضح له خطأ حسابه . ولكن من واجبي بوصني من خدام القانون ألا أترك فرصة تفلت مني . وها هو طارق الباب قد يكون هو وسمعت بعد ذلك خطوات ثقيلة تصعد السلم في تخطب . ثم صوت أنفاس لاهثة . وكان الصاعد يتوقف بين كل خطوتين كأن الصعود أشق عليه من طاقته . وأخيراً دخل علينا

وكان شكله يتفق مع طريقة صموده . فهو رجل عجوز ، عليه معطف بحري مهلهل ، ومن تحته ستره من الجلد مزررة الى الرقبة ، وظهره مقوس ، وركبته ترخيفان ، وتنفضه بدل على إصابته بالربو . وكان كنفاه بهتران وهو متكىء على عكازه القليظ . وحول عنقه منديل ملون . أما وجهه فلم أتبين منه الا عيني سوداوين ثاقبتين يعلوهما حاجبان أبيضان كشيخان ، ومع أنه في تلك

الحالة إلا أني توهمت فيه رئيس بحارة جار عليه الفقر والسن . فسألته :

— ماذا تريد يا صاح ؟

فنظر فيما حوله بيده على طريقة المتقدمين في العمر وقال :

— هل مستر شرلوك هولمز هنا ؟

— كلا . ولكن بالنيابة عنه . وتستطيع أن تخبرني أي رسالة تخصه

— لا أخبر بها أحداً سواه

— ولكني قلت لك إنني بالنيابة عنه . أهي بخصوص مردخاي سمث ؟

— نعم . فأنا أعرف مكان اللنش . وأعرف أين الأشخاص الذين يبحث

عهم . وأعرف أيضاً مكان الكنز . أعرف كل شيء .

— إذن أخبرني وسأبلغه

— سأخبره هو شخصياً

— إذن يجب أن تنتظر عودته

— كلا . لست مستعداً أن أضيع يوماً كاملاً من أجل أي إنسان .

ومادام مستر هولمز ليس هنا ، فعلى مستر هولمز أن يبحث بنفسه عما يريد .

ولا يهمني أن أبقى معك . ولا أريد كذلك أن أقول شيئاً لكما

واتجه نحو الباب . بيد أن اثلي جونز تصدى له :

— انظر قليلاً يا صاحي . لديك معلومات مهمة فيجب ألا تتصرف .

سنبقيك هنا سواء شئت أو لم تشأ إلى أن يعود صديقنا

وحاول العجوز أن يجري ليخرج من الباب . ولكن اثلي جونز وقف

عند الباب بكتفيه العريضين ، فأيقن العجوز من عقم المقاومة ، وصاح وهو

يدق الأرض بعصاه في غضب شديد :

— هذه والله معاملة جميلة . أتيت إلى هنا لأرى سيداً ، وإذا أتيت اللذان

لم أر وجهك من قبل تمسكاني وتعاملني بهذه الحشونة !

قلت له أحاول تهديته :

— لن نخسر شيئاً . وسنعوضك سخياً عن ضياع وقتك . فاجلس على

هذه الأريكة وسوف لا يطول انتظارك

١٠٢

يجلس الرجل متأقفاً ودس وجهه بين راحتيه . وعدت أنا وجونس إلى

التدخين والحديث . وبقية قرع أسماعنا صوت هولمز يصيح :

— أعطاني على الأقل سيجاراً

فقفزنا كالنا من مقعدنا . وإذا هولمز جالس بقرنا يضحك . فصحت

— هولمز ! أنت هنا ؟ ولكن أين الرجل العجوز ؟

فأجابني وهو يمد إلى يده بحفنة من الشعر الأبيض المستعار :

— ها هو رجلك العجوز ! ها هو يشاربه وجواحيه وفروة رأسه .

كنت أعتقد أن تنكسري جيد ولكني لم أكن أتوقع أن يصمد لهذه التجربة

وسر جونز لهذه اللزجة كثيراً ، وراح يهني هولمز . فأشعل هولمز

سيجاراً :

— قضيت النهار كله في العمل . ولما كان عدد كبير من طبقات المجرمين

يعرفني في الوقت الحاضر ، لم أجد بداً من التنكر . هل تلقيت برقيتي

يا جونز ؟

— نعم . ولهذا جئت

— وكيف حال قضيتك ؟

— بشر حال . اضطررت أن أطلق سراح سجينين من الأربعة . وليس

عندي دليل ضد الاثنين الباقين

— لا بأس . سنمضك عنهما باثنين من عندنا . ولكن يجب عليك

أن تضع نفسك تحت إمرتي . وسأترك لك طبعاً حجرة الانتصار الرسمية .

ولكن يجب أن تسير على النهج الذي أوضحه لك تماماً . هل اتفقنا ؟

— تماماً . مادمت تستسلمني الرجلين

— إذن يجب أولاً أن تضع تحت يدي لنشاً بخارياً تابعاً للبوليس . بحيث

يكون عند سلامك وستمنستر في الساعة السابعة

— هذا أمر يسور . ففي هذه المنطقة لنش على أهبة الاستعداد باستمرار .

ولكن اسمح لي أن أذهب وأتصل تليفونياً بزيادة في التأكيد

— وإطلب في الوقت نفسه رجلين من القوة بمكان فرما تحدث مقاومة

١٠٣

— سيكون في اللنش اثنان أو ثلاثة . وماذا أيضاً ؟

— عندما نقبض على الرجلين سنحصل على الكنز . وأعتقد أنه مما يسر

صديقي هذا الحاضر هنا أن يأخذ صندوق الكنز إلى السيدة الشابة التي لها

فيه حق النصف شرعاً وقانوناً . فلنكن هي أول من يفتحه . وهذه جملة

من حق وطني عليّ . أليس كذلك يا وطني ؟

— إنه لمن دواعي السرور العظيم لي

فقال جونز وهو يهز رأسه :

— هذا مخالف للأصول . ولكن المسألة من أولها آخرها مخالفات .

ولهذا لا أشرط سوى أن يسلم الكنز بعد ذلك للسلطات إلى أن يتم التحقيق

الرسمي

— طبعاً . وهناك مسألة أخرى . فأنا أريد أن أعرف بعض التفاصيل

من فم جوناثان سمول نفسه بعد القبض عليه . فأنا كما تعلم أحب أن أراجع

خطوات القضايا التي أتولاها لأنك كد من مطابقة استنتاجاتي لصميم الواقع .

فهل هناك مانع من عقد تلك الجلسة بصفة غير رسمية هنا في بيتي أو في أي

مكان آخر مادام تحت الحراسة الكافية ؟

— أنت سيد الموقف . ولم يكن عندي دليل على وجود شخص بهذا

الاسم . فإذا تمكنت من القبض عليه فلا أرى وجهاً لمعك من الاجتماع به

— هل اتفقنا إذن ؟

— كل الاتفاق . هل هناك شيء آخر ؟

— نعم . فأنا مصمم أن تعشى معنا . فسيكون العشاء جاهزاً بعد نصف

ساعة ، وعندى الليلة محار وأنواع أخرى من الأسماك الفاخرة . وستكون

هذه فرصة تتعرف فيها إلى مواهي في كرم الضيافة

— وهذا الشرط اعترضني عليه أقل بكثير من اعتراضك على الشروط

السابقة

١٠٤

الفصل السابع عشر

مطاردة في النهر

كان العشاء ممتعاً يسود جوه للريح . فهولمز يعرف كيف يتقن السمر

حينما يشاء ، وقد شاء تلك الليلة . وخيل إلى أنه في حالة تجلي . لأنني لم أراه

من قبل في مثل ذلك الجبور والانشراح . وجعل ينتقل بين أفانين للموضوعات

قافزاً من ألعاب السحر إلى خرف القرون الوسطى إلى أنواع الكمان العالمية

الضمررة ، إلى بوذية أهل سيلان . وهو في كل موضوع من هذه الموضوعات

التيابنة كل التيابن يتحدث حديث الخبير

أما اثلي جونز فأثبت أنه يمكن أن يكون ظريفاً حينما يكون الطعام

جيداً ، ولم يحاول أحد منا نحن الثلاثة أن يشير أثناء الطعام إلى القضية التي

جمعتنا من قريب أو بعيد

ولما رفعت المائدة نظر هولمز إلى ساعته ثم ملاً أكوابنا بنبيذ پورتوالفاخر

ثم رفع كأسه قائلاً :

— لنشرب نخب نجاحنا في مهمتنا الصغيرة هذه الليلة . فقدحان أن نتطلق .

هل معك مسدس يا وطني ؟

— عندي مسدس القديم حين كنت في الجيش . إنه في درج مكتبي

— من الخير أن تأخذه معك . إذ يحسن أن نكون على أهبة الاستعداد .

وإني أرى العربة واقفة بالباب . فقد أمرت الجوزي أن يأتي في منتصف الساعة

وركننا العربة فوصلنا إلى وستمنستر بعيد الساعة السابعة بقليل . وعند

المرسى وجدنا لنش البوليس البخاري في انتظارنا . ففحصه هولمز بنظرة ثم

سأل اثلي جونز :

١٠٥

— هل فيه ما يدك على انه تابع للبوليس ؟

— نعم . هذا الصباح الأخضر الجانبى

— إذن أزعج من مكانه

وتم هذا التغيير ثم ركبنا ورفعتم المراسى . وجلسنا نحن الثلاثة في المقدمة ، وجلس بحار عند السكان (الدفة) . وبحار آخر يقود الآلات . وقبع رجلان قويان من رجال المباحث كقوة للأمن . وسألنا جونز :

— الى أين ؟

— الى البرج . ومرهم يقفوا تجاه حوض سفن جا كوسون ولا شك ان اللنش كان سريعاً جداً . وقد انطلق بنا مارقاً كالسهم بين صفوف السفن المثقلة بالضائع . وابتسم هولمز راضياً عندما حاذينا باخرة نهرية قوية كانت تمخر الأمواج ثم لم نلبث أن خلفناها وراءنا وقال :

— ينبغي بهذه السرعة أن نكون قادرين على اللحاق بأى سفينة تمخر مجرى هذا النهر

— ليس تماماً . ولكن قل وجود لنش يسبق لنشنا هذا

— يجب على كل حال أن ندرلك أورورا . وهى من اللنش المشهود لها بالسرعة الفائقة . وسأبين لك الآن يا وطنس طبيعة الموقف . إنك تذكر الى أى حد بلغ فى الضيق لأن هذه القضية اعترضتنا ؟

— نعم أذكر

— لقد حاولت إراحة ذهني بالانغماس فى تحاليل كهاوية . وقد أخذت فى ذلك بنصيحة أحد كبار رجال السياسة الذى قال ان تغيير نوع العمل هو أحسن نوع من أنواع الراحة . والأمر كذلك فعلاً . فلما فرغت من تحليل المادة الصعبة التى فرضتها على نفسى عدت الى مشكلة شولتو ودرست القضية من جديد . وكان الغلمان فى فرقة هيجنز قد قفشوا شاطئ النهر صعوداً وهبوطاً من غير نتيجة . فاللنش ليس له وجود فى مرسى من المراسى . كما انه لم يعد الى قاعدته . وأوشكت أن أعتقد أنهم أغرقوا الزورق لإخفاء آثار هرومهم . لأن هذا الغرض ينبغى الأخذ به إذا يئسنا تماماً من كل الفروض الأخرى . ولم يعنى

١٠٦

من الأخذ بهذا الغرض إلا كونه ثمرة ذكاء لا يتوفر إلا لشخص رضى تربية راقية ، الأمر الذى لا يتوفر فى جوانان سمول المحدود التفكير رغم دهائه ومكره . ففكرت فى ان سمول بما انه قضى فى لندن بعض الوقت ليراقب عن عن كيث بوندتشرى لودج ، فليس من المحتمل أن يغادر العاصمة فى أى لحظة من غير أن يحتاج الى بعض الوقت ، ولو يوماً واحداً ، ليرتب أحواله قبل الرحيل نهائياً

— يبدو لى ان هذا الاحتمال ضعيف بعض الشيء . والأرجح عندى انه كان قد رتب أموره على الرحيل فى أى لحظة

— أخالفك فى رأى يا وطنس . فحمل اقامته فى لندن يصلح على الدوام نقطة ارتكاز . ينسحب اليها عند حدوث أى تعقيدات ليخفى عن الأنظار الى أن ينجلى الموقف . والأشخاص الذين على شاكلته يحسبون دائماً حساب خط الرجعة لأنهم متعرون على التدابير الاجرامية

— هذا معقول ...

— أضف الى هذا ان شريكه الغريب الشكل لا بد أن يتوافر له مخبأ يخفيه تماماً عن الأنظار ، لأنه جدير أن يشترعى الانتباه ويثير لغطاً إن ظهر للناس فى أى مكان . وسرعان ما يربط الناس بينه وبين الجريمة التى تشغل الصحف فيفتضح الأمر كله

— وهذا أيضاً معقول

— فهما إذن قد خرجا لتنفيذ جريمتهم تحت جنح الظلام . ولا بد قد دبرا الأمر ليعودا الى قاعدتهما السرية قبل انبلاج الصباح

— أوافقك على هذا الاستنتاج

— نحن نعلم من مسز سمث ان الساعة كانت الثالثة صباحاً حينما طرق الأعرج باب زوجها ليركب اللنش . وهى ساعة من ساعات الفجر لا تقضى عليها ساعة أخرى حتى يكون العمال على الشواطىء وفى الطرقات . إذن لا يمكن أن يكون اللنش قد ذهب بعيداً فى أول مرحلة . ولهذا أيضاً لم يأخذ سمث من الفحم قدرأ كبيراً . وهو قد دفع لسمث ما يكفي لاغلاق قفله . واحتجز اللنش

١٠٧

للقيام بعملية الفرار الأخيرة . وفى الوقت نفسه نقل الكنز الى المخبأ السرى القريب . حيث يقضى ليلتين ويقرر على ضوء ماتشره الصحف خطوته الأخيرة ، وهى ركوب سفينة من السفن التى تقبل الى المستعمرات أو الى أمريكا تحت جنح الظلام

— واللنش ؟ لا يمكن أن يكونا أخذهما معهما الى البيت

— هذا بديهي . ولهذا قررت ان اللنش لابد أن يكون فى مكان ما غير بعيد من قاعدته الأصلية . وإن كنا لم نره

— هذا هو العقول

— ولهذا وضعت نفسى فى مكان سمول . وحاولت أن أنظر الى الموقف بعقليته وإدراكه . فهو قد أدرك ان إعادة اللنش أو إبقائه فى مرسى مكشوف قد يسهل على البوليس عملية المطاردة . فكيف يمكن أن يوفق بين إخفاء اللنش وبين بقاءه تحت يده فى كل لحظة

— هذه مشكلة

— لقد حاولت أن أجد لها حلالاً وكنت فى موضعه . فوصلت الى طريقة واحدة . وهى أن أدخل اللنش فى حوض جاف مما يستخدم لإصلاح السفن . وأطلب إدخاله تعديل تافه . وأنت تعلم ان هذه الأحواض مغطاة . ومعنى ذلك ألا يظهر اللنش أثر طول المدة المطلوبة . وفى الوقت نفسه يمكن استرداده فى أى ساعة

— إن هذا يبدو من البساطة والسهولة بمكان

— ومثل هذه الأمور البسيطة جداً هى التى لا يفتن بها الانسان إلا بصعوبة شديدة . ولهذا قررت ان أبدأ العمل من جديد على أساس هذه الفكرة . فارتديت الثياب التنكرية ورحلت أطوف بأحواض إصلاح السفن على شاطئ النهر أسأل عن عمل . ولم أعثر على شيء فى خمسة عشر حوضاً . ولم أياس . وفى الحوض السادس عشر ، وهو مملوك لجا كوسون علمت ان اللنش أورورا سلم لهم منذ يومين بواسطة رجل أعرج لعمل إصلاح صغير فى الدفة . وقرر لى رئيس العمال انه لم يعد فى دفته أى خلل . وانه لا ينتظر إلا حضور صاحبه لتسله

١٠٨

— هذا توفيق ضخم

— وفى هذه اللحظة أقبل موردخاى سمث وهو يرتخ من الحجر . وما كنت لأعرف اسمه لولا حالة السكر الفظيع التى جعلته مخور مزهواً باسمه ولقبه

ولنشه الذى لا يلحظه لنش على النهر . وجعل يطالب بتجهيز أورورا للانطلاق

فى رحلة طويلة فى الساعة الثامنة مساءً بالضبط كطلب مستأجره العظيم الكرم

ثم راح يدل على كرم المستأجر بتوزيع الشلنات على العمال بالنيابة عنه . ثم خرج يرتخ قبعته عن يده . فاذا به يدخل حانة ليستألف الشراب . فعدت

أنا الى الورشة . وفى الطريق التقيت صديقة بأحد غلمان فرقة هيجنز . فمئنته

ديدباناً على اللنش عند الشاطئ . وعليه أن يلوح بمبدل أبيض عند ما تقوم أورورا . وسنكون نحن بعيدين عنه فى وسط الماء . وعلى هذا تتمكن من وضع يدنا بسرعة على اللنش والبخارة والركاب وصندوق الكنز وكل شيء

قال جونز متشككاً :

— لقد رتبتم كل شيء بدقة متناهية . والله أعلم هل نحن وراء الأشخاص المقصودين المطلوبين أم لا . ولو كنت أنا فى مكانك لكنت أكثر حرصاً

— ماذا كنت تصنع ؟

— كنت أضع قوة كبيرة من البوليس فى ورشة جا كوسون كي أقبض على الأشخاص بمجرد توجههم الى هناك

— أى انك كنت لا تقبض عليهم أبداً !

— كيف ؟

— إن سمول رجل ماكر . ولا شك انه سيرسل كشافاً قبل أن يذهب بالكنز . وعند أى بادرة من الشك يخفى مدة أسبوع آخر

— كان فى إمكانك أن تلازم موردخاى سمث فيتودك الى مكشهم

— لا أعتقد ان سمث يعرف هذا المكان . فكل ما يجمعه المال والشراب . وهو يتلقى الأوامر فى الحانة مثلاً . لقد فكرت فى جميع الاحتمالات ووجدت هذا الترتيب أقربها الى التوفيق

١٠٩

نخاية الوحش

كان اللش يخترق بنا الجسور والكبارى بأقصى سرعة أثناء هذا الحوار . ولما فرغنا من مباني العاصمة كان آخر أشعة الشمس يذهب قبة كنيسة القديس بولس . وكان المساء قد حل عندما وصلنا الى البرج . فقال هولمز مشيراً الى مجموعة من الأشعة والصواري :

— هذا هو حوض جاكوبسون للاصلاح

وأخرج من جيبه منظاراً ليلياً مكبراً وراح ينظر الى الشاطئ . هذا هو الديدبان في مكانه . ولكني لا أرى للتديل في يده

فأقترح جونز أن نتعد قليلاً ونقف في الانتظار . وكانت اللفظة ظاهرة على الجميع حتى البحارة ورجال القوة . فقال هولمز :

— ليس لنا الحق في أن نأخذ أي فرض قضية مسلمة . فمن يدرينا أي اتجاه سيسلكون . أما في هذا الوضع فنستطيع أن نرى مدخل الحوض . وفي الوقت نفسه لا يمكن لهم أن يرونا . فيجب أن نبقى حيث نحن

وجعل هولمز بعد ذلك يسألنا لقضية الوقت بأحداث مختلفة عن أحدث الآراء في علم الاجتماع ، معلقاً على جموع العمال الذين خرجوا في تلك الآونة من نوبات العمل في الأحواض عائدين إلى بيوتهم . وجماعة قطع الكلام وصاح :

— أليس ما أراه هناك حركة منديل ؟

فصحت بعد أن حدثت النظر :

— إنه غلامك . إنني أراه من هنا بوضوح

— وهذه هي أورورا . إنها تمرق كالشيطان ! افتح النفس على آخر

سرعة أيها السائق . واسرع في أثر هذا اللش ذي النور الأصفر . لن أغفر لنفسي لو أيها أفلتت من يدنا

وكان اللش قد مرق من أمامنا . وبسرعة هائلة جداً بمحاذاة الشاطئ . ففقد جونز فيها ثم هز رأسه قائلاً :

— انها سرعة جداً . أشك في استطاعتنا إدراكها

فصرخ هولمز وقد قدحت عيناه بالشرر :

— بل يجب أن ندركها ! آخر سرعة أيها البحارة ! يجب أن نلتحقهم

ولو أحرقتنا الزورق . يجب بأي ثمن !

وكانت الراجل تهر . والآلات تضج كأنها قلب ميكانيكي ضخم . وأصحبنا نسير بسرعة نرضى عنها . مع أننا كنا نهبز اهتزازاً عنيفاً . ولم تكن بنصر من أورورا إلا نقطة سوداء أمامنا يحيط بها زبد الماء الأبيض الذي تحدهه رفاستاتها . وكنا نحن في أثرها ندور حول السفن والصدائل . وأصوات بحارتها تصيح بنا بحية أو محذرة . وهولمز ماض في تشجيع بحارتنا وتحميمهم مع أنهم كانوا في غاية الحماسة من تلقاء أنفسهم

وبعد قليل قال جونز وهو لا يرفع بصره عن أورورا :

— لقد اقتربنا قليلاً

— أنا متأكد من هذا . وستحاذينا بعد بض دقائق

ولكن حطنا اللىء شاء أن تفصل بيننا وبينها في هذه اللحظة فاطرة تجر ثلاثة صنادل مشحونة بالذخائر . وبكل صعوبة تفادينا الاصطدام بها . وما أن فرغنا من الدوران حولها حتى كانت أورورا قد سبقتنا بجأتي باردة أخرى . وإن كانت لم تزل على مرمى البصر

واستمرت المطاردة حتى تجاوزنا أرصفة شركة الهند الغربية ثم جزيرة الكلاب وعندئذ كانت المسافة بيننا وبين أورورا قد قصرت حتى أصبحنا نسمع أصوات آلاتها . فوجه جونز النور الكشاف إليها ورأينا بوضوح أشكال الأشخاص الواقفين فوقها

كان هناك رجل يجلس وبين ركبتيه شيء أسود قد مال فوقه . وبجانبه

انطلق مسدساتنا في وقت واحد ، قترنج وطوح بذراعيه ثم سقط في النهر . وبعد لحظة واحدة اختفى في زبد الماء

وألقي الرجل الآخر بنفسه . وهو ذو الساق الحشبية - على عملة الدفة فحول اللش الى الضفة الجنوبية مباشرة ، صانماً زاوية حادة . وبهذا مرقت سفينتنا في اتجاهها الأول قبل أن تسرع بتحويل اتجاهها

ولكن سرعان ما كنا في أعقاب أورورا . إلا أنها وصلت الشاطئ قبلنا . وهو شاطئ مقفر تكثر فيه المستنقعات الالامعة في ضوء القمر . ورأينا أورورا تتوغل في طين ذلك الشاطئ وقد ارتفع مقدمها في الهواء . وقفز الهارب ذو الساق الحشبية الى الأرض . ولكنه لم يقدر أن هذه الساق الحشبية ستفوق في الطين اللزج

وعبثاً حاول أن يستخرجها . فسمر في مكانه لا يستطيع التقدم أو التأخر وهو يصرخ كالجنون ويضرب الطين بقدمه الأخرى . فلا يزيد ذلك ساقه الحشبية إلا إيماناً في الغوص

وقد أفادتنا هذه الصيدية الطبيعية أيما فائدة . لأنها أمسكت لنا الهارب الى أن تمكن لنشنا من الرسو . ثم قدفنا أنشوطه من الجبال أحاطت . بكفنه وجررناه بعد ذلك الى اللش كأنه سمكة كبيرة من سمك القرش . أما سمث وابنه جيم فكانا واقفين على لنشهما . فاستدعيناها الى لنشنا . فأقبلا مدعنين وتولى البحارة ربط أورورا في لنشنا . وقطرها اللش بعد ذلك فأخرجها من الطين الذي انغرت فيه

وبتفتيش أورورا وجدنا صندوقاً حديدياً ضخماً ثقيلاً فوق سطحها يدل شكله على أنه من صناعة الهنود . فلم يكن هناك شك أنه الصندوق الذي يضم كنز آل شولتو للملعون

وبجئنا عن الفتح فلم نجد . فتعاونت البحارة على حمله بكل عناية الى قمرتنا الصغيرة في لنش البوليس لأنه كان ثقيل جداً

وفيا كنا نائدين على مهل ، جعلنا نوجه النور الكشاف الى كل مكان على الشاطئ من الجهتين . ولكننا لم نعر على أثر ذلك الوحش الأسود . فأقبنا

كتلة مظلمة أشبه بقلاب نيو فوندلاند . وأمام عملة القيادة رأيت سمث المعجوز عارياً الى خصرته وهو يقذف بالفحم بين الحين والحين الى المرجل وربما كانوا في شك في بداية الأمر هل نحن في آثارهم حقاً أم أنهم مصادفة فلما رأونا تقبى أنهم في كل دوران وكل انحراف لم يعد هناك مجال للشك وعند جربنتش كانت المسافة بيننا وبينهم نحو ثلاثمائة خطوة . فلما وصلنا الى بلاكوكوك قصت المسافة الى مائتين وخمسين . وطفقنا تقرب منهم خطوة خطوة في سباق كسباق الشياطين . ورجلنا لا يدخرون وسعاً في تغطية زورقنا بغذائه الناري . .

وكان الرجل الواقف على السفينة يحرك يديه وهو منحني ولا ندري ماذا يصنع . وبين الحين والحين يرفع نظره ويقيس المسافة الفاصلة بيننا ، وهي تقصر شيئاً فشيئاً

وعلى مرمى الصوت جعل جونز يصرخ فيهم كي يقفوا . ولم تكن المسافة تزيد على مائة خطوة ونحن تجاه باركنج ليفل حيث الشاطئ مكشوف . وكان رد الرجل الواقف في المؤخرة علينا أن لوح قبضتيه مهدداً ، وسعنا صوته الغليظ وهو يسب ويلعن

ولم يكف عن الصراخ حتى رأينا الكتلة التي ظنناها كلباً يتحرك . فاذا رجل أسود قصير لعله أصغر من رأيت في حياتي ، وله رأس ضخم مشوه . فلأيت هولمز يخرج مسدسه . فأخرجت أنا مسدسي بحركة غريزية . لأن منظر وجهه كان كافياً لبعث الرعب في نفس أي انسان بوحشيته وقسوته . وقد كشر عن أنبائه الكبيرة . وهتف بي هولمز بكل هدوء :

— أحكم الهدف وأطلق النار متى رفع يده

وكانت المسافة لا تزيد على عشرين خطوة عندئذ . فاستطعت أن أرى الرجلين على حقيقتهما . فالرجل الأبيض متباعد الساقين يصرخ ويلعن . والقزم الأسود كاشر الأنياب متوهج العينين في ضوءنا الكشاف

رمن حسن الحظ أن الهدف كان واضحاً . لأنه سرعان ما أخرج من تحت ثيابه قطعة مستديرة من الحشب أشبه بالأرغول رفعها الى فمه . وعندئذ

أن عظامه قد استقرت في قاع نهر التاميز
وأشار هولمز بعد ذلك إلى الأرعول الحشبي الغريب الشكل قائلاً :
— لقد أهدتنا مسدساتنا في آخر لحظة

ولم أدرك مغزى عبارته إلا عندما استعان بالفانوس كي يرى في جدار
المنش ، خلف الموضع الذي كنت واقفاً فيه معه ، شظية من تلك الشظايا
للسمومة القاتلة التي عرفناها جيداً ، والتي مات باحداها برنلوميوشولتو للسكين
ولا شك أن هذه الشظية قد مرقت من بيننا نحن الاثنين في نفس اللحظة
التي أطلقنا فيها مسدسينا ، واعترف أن الشعور سررت في جسدي وأنا أصور
ذلك . أما هولمز العجيب فلم يفعل شيئاً سوى أن ابتسم وهز كتفيه على طريقتة
غير السكرتية وقال :

— بوسة واحدة فرقّت بين الحياة والموت . هكذا حظوظ الدنيا دائماً
— ألا تشعر بانفعال يا رجل ؟
— ان الحظ دائماً أعمى . لا يستحق منا انفعالا
— ولكن هذا الحظ يتعلق بحياتك
— ان الحياة لا تمنحني إلا بمقدار ما أستطيع أن أصنعه بها
فلم يسعني أنا أيضاً إلا أن أهن كفتي يائساً من تفسير نظرة هذا الانسان
العجيب إلى الدنيا . وانتهجت بتفكيرى الى الصفحة الجديدة التي فتحها هذه
الصدفة في حياتي أنا بعد أن وفق هولمز في استرداد السكر



الفصل التاسع عشر

جلسة عائلية

جلس أسيرنا في القمرة أمام ذلك الصندوق الحديدي الذي فعل الكثير
ليحصل عليه ، وصبر طويلاً ليصل اليه . وجعلت أتأمله ، فإذا هو رجل
لوحته حرارة الشمس جداً . ليس لجسارته حد . وقد انتشرت فوق ملامحه
الداكنة شبكة من العنوض والتجاعيد ، تروي قصة حياة شاقة في العراء
ولمحت تحت لحيته الكثة ذقنا بارزة تدل على أنه رجل ليس من السهل
إرجاعه عن أمر عقد العزم عليه . أما عمره فرمما كان نحو الخمسين . إذ أن
شعره الأسود المجد كان يكثر فيه الشيب . وكذلك في حاجبيه الكثيفين .
فسحنته على العموم مخيفة . وإن كان في حال هدوئه ربما بدا غير محروم من
الوسامة

كان جالسا وبداه الصفدتان بالأغلال في حجره . وقد سقط رأسه على
صدره . وعيناه ترمقان ذلك الصندوق الذي كان محور جرائمه . وخيل إليّ
أنني قرأت في نظراته تلك آيات الحزن أكثر مما قرأت علامات الغضب . وفي
لحظة من اللحظات رفع وجهه نحيل إليّ أني أرى سخرية . وعندئذ قال له
هولمز وهو يشعل سيجاراً :

— الحقيقة يا جوناثان سمول أني آسف لوصول الأمور إلى هذا الحد
فقال الأسير بلهجة صريحة :
— وأنا أيضا آسف يا سيدي . وإن كنت أقسم لك على الكتاب المقدس
أنني لم أرفع يدي على مستر شولتو . وإنما كان هذا الشيطان الصغير تونجا
هو الذي أطلق إحدى شظاياه الملعونة عليه . ولم يكن لي في ذلك يد .

وأشهد الله أنني حزنت لمصرعه كما لو كان من ذوى قرباى . فانهلت ضربا على
ذلك الشيطان الصغير بطرف الجبل . ولكن ماتم كان قد تم ، ولا سبل
لرد ميت إلى الحياة

فرقت نظرة هولمز ورق صوته وهو يقول :

— خذ هذا السيجار ودخنه

فتناول الأسير السيجار شاكرآ . وعندئذ قال هولمز :

— خذ اشرب قليلا من زجاجي . فاني أراك مبتلا من رأسك الى قدمك
وكيف خطر لك أن شخصاً ضعيفاً قصيراً مثل هذا الوحش الأسود تونجا كان
يستطيع أن يتغلب على مقاومة مستر شولتو وبقيدته في مكانه الى أن تتمكن
أنت من التسلق بواسطة الجبل ؟

— يبدو ياسيدي أنك تعرف عن الموضوع كل شيء ، كأنك كنت حاضراً
والحقيقة أنني كنت أتوقع أن أجد الحجره خالية . لأنني كنت على علم سابق
بجميع عادات أهل البيت . وأن هذه الساعة هي الساعة التي ينزل فيها مستر
برنلوميوشولتو ليتناول طعام العشاء . وليس في نيتي أن أكرمك عنك شيئاً
من تفاصيل الموضوع بعد أن حدث ما حدث . فخير دفاع أستطيع أن أدفع به
عن نفسي هو أن أذكر الحقيقة من غير مواربة

وتجرع الرجل جرعة كبيرة من زجاجة الويسكي ثم استطرد :

— لو أن الرجل كان اليجر شولتو الكبير لهاجمته عن طيب خاطر ولم
أجد شيئاً من الدم على قنله وكأنني أدخن هذا السيجار . أما ذلك الشاب
السكين فلم يكن بيني وبينه أى عداة

— أنت الآن في عهدة المستر آملاني جونسن في قوة سكرتندبارد وستولى
احضارك الى مسكبي . لأنني أريد أن أعرف منك حقيقة المسألة مجدافيرها
ويحسن أن تعرف بكل شيء . لأنك إن فعلت فاني أأمل أن أستطيع لك شيئاً
من النفع . ففي اعتقادي أنني أستطيع أن أثبت للمحلفين أن السم الذي

استخدمه تونجا يفعل فعله في التو واللحظة بحيث لم تكن لتستطيع اسعافه عند
وصولك الى الحجره

— هذا هو الواقع ياسيدي . فاني لم أشعر بصدمة في حياتي كالتى شعرت
بها عندما رأيته ينظر الى متصلب عضلات الوجه وقد مال رأسه فوق كفتيه
حينما وصلت في تسليقي الى حافة النافذة . لقد هنفي هذا المنظر هنأً عنيفاً
وكنت حزيناً أن أقل تونجا في الحال لولا أنه فر من أمامي . وهذا هو السبب
في أنه نسي شومته ذات الرأس الحجرية على المنضدة . كما أسقط جعبة قذائفه
السمومة . فكان ذلك سبباً في وصولكم الى اقضاء أترنا . وان كنت لا أدري
الى الآن كيف تمكنتم من تعقبنا بعد ذلك في متاهات لندن . وليس معنى هذا
أنني أشعر بأى حقد عليكم . فهذه مشيئة القدر الذي لا أدري لماذا يضطهدني
وابتسم الرجل ابتسامة مرة وهو يستطرد :

— أى نحس هذا الذي جعلني وأنا صاحب الحق في نصف مليون من
الجنينيات أفضى نصف عمري في بناء حاجز الأمواج في جزائر أندمان . ثم
أفضى في الغالب مابقي من عمري بعد الآن في تكسير الحجره في ليان دريمورا
لقد كان يوماً مششوماً ذلك الذي قابلت فيه التاجر أحمد ، فاطصلت بمقاديري
بكثر أجرا الذي لم يستفد منه انسان وضع يده عليه الا اللعنات . فالتاجر أحمد
قتل . ولليجور شولتو عاش مذعوراً أثمياً . أما أنا فكان نصيبي اهدار حياتي
بين السجون في الشرق والغرب

وفي هذه اللحظة دس أثنى جونسن وجهه من فتحة القمرة . فلما رأى
هذا الاجتماع الثلاثي قال :

— يا لها من جلسة عائلية ! أظن يا هولمز أنني محتاج لجرعة من قينبتك
والحقيقة اننا جميعاً نستحق أن نتبادل التهنة

فتبادلت مع هولمز نظرة ذات مغزى . واستطرد جونسن :

— مما يؤسف له حقاً أننا لم نتمكن من وضع يدنا على المخلوق الآخر حياً
ولكن لم تكن لنا في الأمر حيلة

— يجب أن نحمد الظروف . لأننا لم نكن نتصور أن أوروبا بهذه القوة
— إن صاحبها مردخاي سث يقول إنها من أسرع عشرة لنشات فوق
هذا النهر . وأنه لو كان معه وقاد يساعده لما استطعنا أن نلحق بها إطلاقاً
وإن كان في الوقت نفسه يقسم أعظم الأيمان أنه لم يكن يدرى شيئاً عن مسألة
زروود وعلاقة هذين الشخصين بها
وعندئذ انفجر أسيرنا بكل اخلاص قائلاً :

— إنه لم يكن يدرى شيئاً فعلاً . فقد اخترت لنشه لأنى سمعت من البحارة
العلميين بأحوال الشاطئ وسفته أنه من أسرع اللنشات . ولم أخبره بشيء
وأكتفيت بالسخاء في الأجر مقدماً . ووعدته بثروة طيبة إذا وصلنا سالمين
إلى الباخرة أزميرالدا في مرفأ جريفزيند لنبحر الى البرازيل
— مادام لم يقترف أثماً فسنعمل جهداً كي لا يناله سوء . فنحن رجال
سكوتلنديارد نتصف بالسرعة في القبض . ولكننا لا نتصف بالسرعة في الإدانة
جزافاً . هذا شعارنا

فابتسمت أنا وهولمز لأن الصديق جونز بدأ بالفعل يتقمص دور البطل
في القبض على الجاني . واستطرد جونز قائلاً :

— سنصل عما قليل الى كوبري فوكسهول . وهناك يادكتور وطسن
سنترك ونزل صندوق الكنز ولا حاجة بي أن أقول لك أنني تحملت مسؤولية
خطيرة بالإقدام على ذلك . وهو عمل يخالف الأصول والتعليمات . بيد أن
الانضاقية هي الانضاقية . ولكني قياماً بالشكليات سأرسل معك حارساً بما أنك
تحمل غنمة ثمينة كهذه . وستركب عربة طبعاً ؟

— نعم سأركب عربة

— من المؤسف أننا لم نعتز على المفتاح . والا لألقينا نظرة مبدئية قبل أن
تأخذ الصندوق وسيكون عليك في هذه الحالة أن تحطمه

ثم نظر الى جوناان سمول وقال له :

— أين المفتاح أيها الرجل ؟

١٤٨

— في قاع النهر

— لم تكن بك حاجة لهذا العمل الذي لاجدوى منه . فقد أتعبتنا بما فيه
الكفاية . وليست في حاجة يادكتور لتكرير التحذير . وأرجوك أن تعود
بالصندوق بسرعة الى مسكن هولمز بشارع بيكر . وستجدنا هناك في انتظار
قدمك لنذهب الى مكتب البوليس



١٤٩

الفصل العشرون

الكنز الثمين

توقف اللنش عند مرسى فوكسهول . وتولى الشرطي الضخم الذي كلفه
جونز بمرافقتي وحراسي حمل الصندوق الثقيل الى الشاطئ . ولبئنا بعض
الوقت الى أن أحضر شرطي آخر عربة آجرة مقفلة

وأمام العملة الفضية الكبيرة التي وضعتها تحت أنف الحوذى ألب ظهور
جياده بحيث وصلنا في مدى ربع ساعة الى منزل مسز سيسل فورستر في
كامبرويل . وبطبيعة الحال بدأ الاستغراب على الخادم لحضور زوار في مثل
هذه الساعة المتأخرة جداً وعلى غير انتظار

وفهمنا منه ان مسز سيسل فورستر كانت سهرانة في الخارج . وليس من
المنتظر عودتها قبل الفجر . أما الأنسة مورستان فكانت في قاعة الاستقبال .
وإلى هناك عمت وجهي حاملاً الصندوق الثقيل بعد أن رجوت الجندي أن
يبقى في انتظاري بالعربة

ووجدتها جالسة بجوار النافذة المفتوحة ، وقد ارتدت ثوباً أبيض ناصعاً
فضفاضاً ، فيه لمسات متباعدة أشبه بالريش الوردي عند العنق وعند الخاصرة .
وكان الضوء المظلل بغلائل وردية يسقط على مقعدها ويتراقص فوق وجهها
المهادى العذب ، ويداعب بظلاله خصلات شعرها الغزير الذي يلعب لمعاناً لا
دخل للصناعة فيه

وكان ذراعها الأبيض كالعاج مسترخياً على ذراع المقعد . وقد بدا قوامها
كله وكأنه تعبير رائع ينطق بالأسى
فلما سمعت وقع أقدامي ففتزت واقفة على قدميها . ثم اندفع الدم القاني ليرسم

١٤٠



وقال الدكتور والسون للآنسة مورستان : « هذا هو كنز « أجرا » الثمين »

الدهشة والسرور فوق خديها الشاحبين وقالت :

— لقد ظننت حين سمعت العربية تقف أمام الباب انها مسز فورستر وقد عادت مبكرة عن موعدها . ولكن لم يخاطر بيالى مطلقاً أن تكون أنت القادم . فأى الأبناء جئت تحملها إلى ؟

قللت وأنا أضع الصندوق زهو فوق منضدة ، وقد اجتهدت أن أجعل صوتي مبعراً عن الريح والاستبشار ، وإن كان قلبي في الحقيقة متقبضاً :

— لقد أتيتك بشيء أفضل بكثير من أى نبيأ . أتيتك بشيء يجب أن يكون أئمن في نظرك من أبناء الدنيا بأسرها . أتيتك بالبراء الطائل

وأشرت بيدي الى الصندوق الحديدى . فوجهت بصرها اليه . ولم تستقر عنده إلا لحظة ثم التفتت إلىّ وسألتنى بكل فتور :

— هل هذا هو الكنز إذن ؟

— نعم هذا هو كنز أجرا الثمين . إن نصف ما فيه من حقل . والنصف الثانى من حق نادبوس تولتو . ويزيد نصيب كل منكما عن ربع مليون ذهباً .

فكرى في هذا التصورية |

فظلت صامته لاتعلق بشيء ، قفلت كأنى أوقظها :

— سأساعدك على التصور . لو وضعت نصيكي في بنك بسعر الريح الجارى في السوق الآن لكفى ذلك حصولك على إيراد صاف لا يقل عن ألف جنيه شهرياً . ومعنى هذا انه سيندر في الامبراطورية البريطانية وجود سيده شابة تضارعك ثراء

ومرة أخرى لم ألح عليها اهتماماً بالقول أو الاشارة

— بربك أليس هذا رائعاً ؟

وخيل إلى انها ربما ظننت الى شيء من التكلف في حماسي وتمنئى . لأنى رأيت حاجبها يرتفان قليلاً ثم رمقتى بنظرة غريبة . وقالت :

— إن حصلت على هذا كله . فيفضلك أنت

فأسرعت أجيبها مصححاً للأوضاع :

— كلا . فالفضل ليس لي أنا . بل لصديق شرلوك هولمز . فهما كانت

حماسي وعزمي على اقتناص الجائة واسترداد الكنز ، فما كنت لأستطيع الوصول

بني سمع تلك الآثار الغامضة والحجوط الخفية التي بلغ من غموضها انها تحدث مقدرته الفذة وقلته العميقة . وانه لمن الاعتراف بالواقع أن تقول انه كان من الجائز جداً أن نخسر الجولة في آخر لحظة . وأن يفلت الجائة ويسقط متاقبل

فوضعت يدها على صدرها في لهفة جميلة وقالت :

— اجلس من فضلك وحدثني بجميع التفاصيل يادكتور وطسن

فلم يسعني سوى أن اجلس وأحدثها بإيجاز عما حدث منذ رأيها آخر مرة . فشرحت لها باختصار نظرية هولمز في البحث ، ثم اكتشافه لوجود اللنش أورورا في الحوض الجاف ، ثم ظهور آثني جونس على المسرح بدعوة من هولمز ، ثم معلومتنا الليلية النهرية والمطاردة العنيفة اليائسة التي خضناها على صفحة التاميز

وكانت الآنسة مورستان تصغى باتباه وقد انجرت شفتها المقيقتان ، ولعت عينها بالحماة والاهتمام . فلما حدثها عن تلك الشظية التي لم تصبنا إلا بأعجوبة ، شح وجهاً جداً حتى لقد خشيت أن يغمر عليها . فأسرعت أصب لها كوباً من الماء . فقالت :

— ليس بي شيء . أنا بخير . إنما اهترت أعصابي لأننى أدركت الى أى

حد عرضت أصدقاء أعزاء للخطر من أجل

فأبهج قلبي لهذه الكلمة وقلت لها :

— لقد انتهى كل شيء الآن . انتهت جميع الأخطار والتاعب . وهي

ليست شيئاً بجانب الثمرة الثمينه التي حصلنا عليها . وسوف لا أخبرك بمزيد من

التفاصيل الممزنة . ولنغير موضوع الكلام الى أشياء أكثر بهجة . هذا هو

الكنز أماناً . كنز أجرا الثمين . أى شيء يمكن أن يكون أكثر بهجة للنفس

من هذا الكنز ؟ لقد استأذنت أن أتى به اليك . لأنى ظننت أنه سوف يهملك

أن تكوني أول من يراه

فقلت من غير أن يبدو في صوتها أى تلهف :

— طبعاً هذا مهمنى جداً

وربما كان قد خطر لها أن تقول ذلك لأنها وجدت من غير اللائق

ألا تكثرت لشيء كهذا تكلف الحصول عليه كل هذا الثمن الباهظ

ورأيها تقدم فتفتح فوق الصندوق وتقول :

— ياله من صندوق بديع !

ورفعت نظرها الى فسرت الرجفة في أعصابي وسمعتها تسألني :

— أنه فيما أظن من مصنوعات الهند ؟

فانهرت الفرصة لأظهر لها دقة معلوماتي :

— نعم . من صناعة أهل بنارس على وجه التحديد . فهم المتخصصون في

مثل هذه الخزاف العديّة في شبه القارة الهندية

وحاولت أن ترفعه ثم هفت بصوتها العذب :

— يا لله ! كم هو قليل ! ان الصندوق وحده تحفة ثمينة من تحف الصناعة

ولكن أين المفتاح يادكتور ؟

— قدف به جوناثان سمول الى نهر التاميز عندما أطبقنا عليه وأيقن بفشله

وهزيمته . لا بد لي من الاستعانة بقضيب الدفأة

وكان في واجهة الصندوق نقش بارز على شكل الإله بوذا جالسا القرفصاء

فندست طرف القضيب تحت غذا التمثال واستعملته رافعة فافتتح الصندوق

بطريقة عالية

وبأصابع مرتعشة رفعت الغطاء . ووقفنا نحن الاثنان نحملق مبهوتين :

كان الصندوق خالياً تماماً !

وأقتت من ذهولي على صوت الآنسة مورستان تقول بكل هدوء :

— إذن ضاع الكنز !

وظنت هذه الكلمة في أذني طويلاً قبل أن أظن الى حقيقة معناها

وأحسست كأن سحابة قائمة قد انشعرت عن وجداني . فالحقيقة أنني لم أكن

أدرى على وجه الدقة الى أى حد كان كنز أجرا هذا عبثاً تقيلاً على كاهلي ، الى

أن انزاح هذا العبء في تلك اللحظة تماماً

أجل قد يكون ذلك أنانية ولاشك . وقد يكون قلة اخلاص . ولكنى مع

ذلك لم أشعر أن في قلبي مكاناً لشيء آخر ونحن في هذا الموقف سوى الفرح

الذى لا حد له لأن الحاجز الذهبي الذى كان قائماً بيني وبينها سقط كما سقطت أسوار أوربها

ومن غير أن أظن لما أقول . سمعت نفسى أقول من أعماق قلبي :

— الحمد لله !

وتوقفت في الحال أن تعضب . ولكنى فوجئت بها ترمقى بنظرة سريعة

وطلي فيها ابتسامة تحمل معنى التساؤل :

— لماذا تقول ذلك ؟

فلم أدر إلا وأنا أتناول يدها في يدي . فلم تمنع . وعندئذ قلت :

— لأنك بذلك أصبحت في متناول يدي مرة أخرى . لأننى أحبك

بامارى أصدق حب يمكن أن يكنه رجل لامرأة ، لأن هذا الكنز وهذه

الأموال كانت قفلاً يحتم على فى فلا أستطيع أن أروح بحى . أما الآن وقد ذهب

كل هذا فأستطيع أن أقول لك كم أحبك . وهذا يا ماري هو السبب الذى

من أجله هتف قلبي حمداً لله

فأجابت بصوت هامس وأنا أجدبها الى صدري :

— إذن أنا أيضاً أقول الحمد لله !

ولئن سجل المسجلون أن كزراً ثميناً فقد تلك الليلة . فحسبى يقينى أنني في

تلك الليلة غنمت كزراً لا يقدر بمال



السجين يتكلم

ما من شك أن ذلك الجاويش الذي كان ينتظري في العربية كان رجلاً صبوراً جداً . لأنه لم يستعجلني . مع أن وقتاً طويلاً كان قد مر قبل أن أستيقظ فأتذكر الدنيا وأتذكره معها فأعود إليه على مضض

وأكفهر وجه المسكين عندما أطلعت على الصندوق الحاوي وصاح :
— ضاعت علينا المكافأة . حينئذ لا توجد غنيمة لا يوجد عطاء . مع أن عملية هذه الليلة كانت ستجلب لكل منا عشرة جنيهات

— أن مستر نادوبوس شولتو رجل غني جداً . وسيتهم بمكافأته سواء كان هنالك كنز أم لا
فهب الرجل رأسه بأسى وعاد يقول :

— مسألة مؤسفة ، ولا ندرى ماذا سيقول مستر أثلي جونس

ويظهر أن تنبؤاته كانت في محالها . لأن صاحبنا جونس بهت عندما وصلت إلى شارع بيكر وفتحت أمامه الصندوق الحاوي . وكانت المجموعة قد وصلت هناك منذ قليل . ذلك أن جونس غير رأيه أثناء الطريق وقرر تخيير مذكرة بما تم في أول مركز للبوليس قبل الذهاب إلى بيت هولمز . وكان صاحبي جالساً في مقعده المعتاد غير مكترث لشيء . أما جوناثان سمول فجلس قبالة بساطة الخشبية . فلما فتحت الصندوق ورأى رد الفعل القاسي على وجه جونس انفجر ضاحكاً . فصاح جونس :

— هذا من فعل يدك يا سمول

— أجل . فقد وضعت الكنز في مكان لا تصل إليه يدك أبداً . ولا بد أني

إنسان . انه كثرى أنا . وما دمت لا أستطيع أن أستفيد منه فليس أقل من الحيولة بين سوى وتلك الاستفادة الغتصبة

وجال الرجل الأعرج ببصره بيننا برهة ثم استطرد :

— أوكد لكم أنه ما من إنسان على وجه الأرض له مثل الذي لي من الحق في هذا الكنز . اللهم الا الرجال الثلاثة الموجودون الآن . في ليمان جزائر

اندمان حيث تركتهم . وقد أصبحت واثقاً أن أحداً لن يصل إليه ، ولا أنا ولا هم كذلك . وقد قمت بهذا العمل بالنيابة عنهم كما قمت به بالاصالة عن نفسي فقد كان شعارنا دائماً علامة الـ «ع» . واني على يقين من أهمهم لو كانوا موجودين لأشاروا على أن أفعل ما فعلت . . وان أقذف بهذه الجواهر الى نهر التاميز حتى لا تقع في يد أحد من آل شولتو أو آل مورستان . فليس من أجل هؤلاء وللعمل على إرثهم أقدمنا على ما اقترناه في حق أحمد المسكين . وعلى هذا أهمها السادة ستجدون الكنز حيث تجدون الفتاح ، وحيث تستقر جثة تونج الآن . فإني عندما رأيت لنشك بطبق علينا ، ألقيت بكل شيء الى القاع فقال له أثلي جونس بحدة :

— انك تخدعنا يا جوناثان سمول . فلو أردت أن تقذف الكنز في التاميز لكان أسهل عليك أن تلقي الصندوق بما فيه دفعة واحدة !

فرمقه جوناثان سمول بنظرة جانبية وقال بهمك :

— كان هذا أسهل في القذف . وأسهل أيضاً في الاستخراج . فان الرجل الذي كان من البراعة بحيث يقع على آثرى بين الملايين في لندن لم يكن ليعجزه أن يعثر على صندوق حديدي في قاع نهر . أما الآن وهذه الجواهر مبعثرة على مدى خمسة أميال أو نحو ذلك ، فالهمة عسيرة ان لم تكن مستحيلة كل الاستحالة

وخفض صوته قليلاً وهو يقول :

— لقد حز في قلمي أن أصنع ما صنعت بتلك الماسات واللائيء . ولكن لا جدوى من الحزن . فكيف مري من شدايد ومحن تعلمت منها درساً واحداً باقياً ، هو ألا أحزن أبداً على ما فات

— هذه مسألة خطيرة يا جوناثان سمول . ولو أنك ساعدت العدالة بدلا

من تبديد تلك الثروة على هذا الوجه القبيح ، لكنت أمامك فرصة للتمتع برحمة المدالاة أثناء المحاكمة

فانفجر التعلب العجوز ساخطاً :

— العدالة ! أقول العدالة ؟ لها من عدالة حقاً ! غنيمة من هذه ان لم تكن غنيمة ؟ أين هي العدالة التي ترغمني على إعطائها لمن لاحق لهم فيها ؟ انظروا الى الجهود التي بذلها ! انهم عثروا سنة طويلة قضيتها في تلك المنطقة

الويرة بالحلي ، أفضى النهار بطوله في العمل تحت وهج الشمس وأفضى الليل بطوله مقيداً بالأغلال في أكوام قدرة ، ينهش الناموس ، ويضطهدني الجنود السود لينتقموا في شخصي من الجنس الأبيض . هكذا دفعت ثمن كنز أجزأ غالياً . ثم تحدثوني أتم عن العدالة ، كي أتخلي عن عمرة كل هذا العناء لقوم لا يستحقونه ! أفضل من هذا عندي أن تنغرس شظية من شظايا تونجا في جداري ! ذلك خير من أن أذهب أنا إلى الليمان أحطم الحجارة وأنا أشعر أن غيري يتمتع بأموالي !

وهذا طرح سمول جانباً قناع التجلد والسخرية ، وتطأثر الشرر من عينيه وجعلت الأصفاد الحديدية تصل صليلاً وهو يحرك يديه بحركات عصبية فأدركت على الفور أن الليجور شولتو كان على حق في الرعب الذي صوره لنا ابته لأن هذا الرجل كان يطارده

وتركه هولمز حتى هدأ قليلاً وقال له برزانة :

— إنك تنسى يا جوناثان سمول أننا لا ندرى شيئاً على الإطلاق من هذا كله . فنحن لم نسمع قصتك . ولهذا لا نستطيع أن نتنبأ كيف أن العدالة كان ينبغي أن تكون في جانبك

— الحقيقة ياسيدي أنك كنت لطيفاً جداً في محادثاتك معي ، مع أنني أدين لك بفضل وجود هذه الاصفاد في بدى الآن . ولكني لا أشعر بالتحقد عليك بسبب ذلك . لأنك كنت تقوم بواجبك ولا تضمر لي سوءاً بصفة شخصية . فإن كنت تريد ياسيدي أن تسمع مني حكايتي ، فليس عندي مانع من ذلك وليس في نيتي أن أكرم عنك أي جانب من الحقيقة ، والله على ما أقول شهيد

فصب له هولمز كأساً من الويسكي والصدوا وقدمه إليه ، فأوماً الرجل برأسه وقال :

— شكراً لك . ضعه هنا بجانبني لأرتشف منه كلما جف حلقى . انى ياسيدي من أهالي وورشرستر . هناك ولدت بالقرب من بيرشور . ولو ذهبت الى تلك المنطقة الآن لوجدت عدداً كبيراً من الناس يحمل اسم سمول . واعترف أنني لم أشرف كثيراً هذا الاسم . فجميع من يحملونه فلاحون يجدون شرفاً

أما أنا فكننت منذ صغرى أفاقاً ماجناً . وفي سن الثامنة عشرة فتنت بفتاة بريئة خدعتها وجنبت عليها . ثم لم أجد أمامي طريقاً للنجاة سوى أن أضرم خلسة للفرقة المسافرة الى الهند

« وبطبيعة الحال لم يكن عندي استعداد كبير لحياة الجندي . وكل ما استطعت اتقانه هو مشية الأوزة ، وتنظيف البندقية وإصابة الهدف . ثم وسوس لي شيطان أن أزل لأستحم في نهر الكانج . ولحسن الحظ أنه كان معي

جاويش السرية جون هولدر الذي كان سباحاً من أمهر السباحين . وبينما أنا في منتصف النهر لحق بي تمساح . فقضمت ساقى اليمنى كأهمر جراح في الإمبراطورية فوق الركة مباشرة . وتأثير الصدمة ونزف الدم أغمى على . وكنت حزيناً أن أغرق لولا أن هولدر أدركني وحملني إلى الشاطئ . حيث قضيت في المستشفى خمسة أشهر . فلما خرجت أحجبل على هذه الساق الخشبية وجدت نفسي من ذوى العاهات ، لا أصلح للخدمة العسكرية ولا لأى نشاط آخر

« وكنت كما يمكن أن تتصوروا حزينا جداً على مصيرى العس في ذلك الوقت بالرغم من أنني لم أبلغ العشرين من عمري بعد . ولكن النباء كانت رحيمة بي فبشت لي بنعمة في طي تلك النعمة . وقضيت لي مزارعاً من كبار المزارعين البيض اسمه فابيل وايت ، كان بحاجة الى مقدم لماله الوطني . ولما كانت تربطه بكونلونيل فرقتنا صداقة قوية فقد اهتم بأمرى وعينى في الوظيفة التي لم تكن تحتاج الى الشيء بل الى قضاء معظم الوقت على صهوة جواد . وتلك مسألة لم تكن تعوقني عنها ساق الخشبية

« وكل ما كان مطلوباً مني أن أجوب أرجاء مزرعة (النيلة) لأرقب العمال وألعب ظهورهم بالسياط من حين إلى حين ، لحثهم على ترك الكسل ، أو لمجرد التسلية وتبديد السأم عن نفسي ... وكان المرتب طيباً ، والبيت الذي خصصه لي مريحاً ، بحيث لم أكن أطعم في أكثر من قضاء بقية أيامي على تلك الوتيرة »

« ولكن سوء طالعي جعل ذلك الأمل المتواضع عزيز النال . ففجأة ومن غير سابق إنذار تأججت نيران الثورة في الاقليم كله ضد البيض . ولا أدري على وجه التحقيق ما هي طبيعة هؤلاء الناس . فقد كانت الأمور قبل تلك الثورة في متبى الهدوء والسكينة شاملة كأننا في قطعة من الريف الإنجليزي مثل سوري أو كنت . وبين يوم وليلة ومن غير سبب مباشر اندفعت جموع لا تقل عن ربع مليون من الشياطين السمر بضمون الجحيم حول الأوربيين . وكانت مزرعتنا في موضع يقال له « موطرا » بالقرب من حدود الولايات الشمالية الغربية . فكانت السماء في ليلة بعد ليلة تتوهج بالنيران المتصاعدة من بيوت المستعمرين . وكنا في كل يوم نستقبل أفواجا جديدة من المهاجرين ومعهم زوجاتهم وأطفالهم ، في طريقهم إلى مدينة أجرا حيث توجد أقرب قوة رئيسية من الجيش الإنجليزي »

« وكان المستر وايت رجلاً عنيداً . ظل مصمماً على أن التهويل والمبالغة يجلبان الخطر أكثر مما ينبغي . وأن ذلك التمرد أشبه بنيران التبن يخبو فجأة كما اندلع فجأة . وأنه من غير اللائق أن نهرب من غير مهرب »

« وفي ذات يوم كان مستر وايت جالساً في شرفة بيته الحشبي يحتمى الولسكي ويدخن السيجار حين اقتض عليه الثوار . وبطبيعة الحال ناصرته أنا وداوسن الذي كان يقيم بزوجه وأولاده ليؤدي الأعمال الكتابية والحسابات في المزرعة . وكنت في تلك اللحظة عائداً على صهوة الجواد ، عندما رأيت ألسنة النار مندلعة . فأسرعت قليلاً لألتقي في الطريق بمجموعة من الكلاب الجائعة تنمش لهما مبرقاً كان يوماً ما زوجة داوسن . وعلى مسافة قليلة وجدت داوسن نفسه ملقى على وجهه مقتولاً وفي يده مسدسه وقد فرغ منه الرصاص . وتناثر من حوله أربعة قتلى من الثوار »

١٣٠

« وجذبت عنان جوادى ووقفت برهة أفكر أية وجهة أسلك . وكان الدخان يتصاعد كثيفاً من بيت وايت وألسنة النيران ترعى في سقفه . فأدركت أنني لا أستطيع لمحدوي نفعاً . وكل ما أجنبه من التدخل أن تذهب حياتي هدرًا . واستظلت أن أتبين من مكاني المرتفع فوق الجواد مئات ومئات من الشياطين السمر ، في ملابس حمراء ، يقصون رقصة النصر الوحشية حول البيت المحترق وهم يرسلون صراخاً تشعشع له الأبدان »

« وبقية تنبه لوجودي نفر منهم وأشاروا بحوي بأيديهم . وإذا بضع رصاصات تنثر من فوق رأسي . فكان في ذلك فصل الخطاب بالنسبة لي ، لأن الإنسان لا يعرف التردد حينما تكون حياته في كفة الميزان »

« لويت عنان جوادى يا سيدي وانطلقت كأن الشيطان في أعقابني اخترق الحقول والسهول لا ألقى على شيء ولا أفكر في شيء ، إلى أن ألقىت نفسي في ساعة متأخرة من الليل أمام أسوار أجرا »

وتوقف جوناثان سمول قليلاً ليسترد أنفاسه ، لأن ذكرى تلك المخاطر كان قد أثار فيه من الاثغالات كما لو أنها تحدث له لساعتها . ومد يده إلى الكأس التي بجواره ورفعها بكتنا يديه ليبل شفتيه ويرطب لسانه الذي أصابه الجفاف »



١٣١

الفصل الثاني والعشرون

بحد النخب

وبعد أن استرد سمول بعض هدوئه استطرد :

« واتضح مع ذلك أن أجرا ليست مكاناً مأموناً أكثر من البطاح الأخرى لأن الإقليم كله كان كمنش النحل الهائج . وحينما استطاع نفر من الإنجليز أن يتجمعوا ، لم يستطيعوا أن يتحكموا إلا في دائرة تحدها لهم بناذقهم . أما فيما عدا ذلك فهم يهيمنون على وجوههم ، وما ظنك بمعركة يقف فيها بضع مئات أمام الملايين ؟ وأقضى ما في الأمر أن الجيوش التي كانت تحاربنا مكونة من الوطنيين الذين دربناهم وعلمناهم أساليب القتال الحديثة ، بل أنهم كانوا يقاتلوننا بينادقنا ورصاصنا ، وهم مرتدين ثياب جيشنا الحمراء ! »

« وفي قلعة أجرا كانت الفرقة الثالثة من بناذق البنغال ، وبعض فضائل من السيخ ، وفضيلتان من الخيالة وبطارية مدفعية . وقام القائد بتجنيد بعض المدنيين الإنجليز من كتبة وتجار . وإلى هؤلاء انضمت أنا وساقى الحشبية . وخرجنا للقائه الثوار في أوائل شهر يولييه ، فاستطعنا أن نردمهم قليلاً ، ريثما فرغ بارودنا ، ثم تهبنا إلى المدينة »

« وكانت الأخبار التي تأتينا كلها حالكمة ، تتقاطر بنذر السوء من كل مكان . ولا عجب . فلو نظرت إلى الخريطة لوجدت موقع أجرا في قلب الإقليم المتمرد . بحيث تبعد النجدات عنا من الشرق ومن الجنوب بما لا يقل عن مائة ميل . وحينما أدرنا أبنارنا لم تقع إلا على التعذيب والقتل والاعتصام »

« ومدينة أجرا متمسة الأرجاء ، توج بالهندوس المتعصبين عباد الأبقار . »

١٣٢

ولم تكن نحن إلا حفنة من الرجال وسط ذلك الحشد الهائل . ولهذا عبر بنا قائدنا النهر وأقام بنا في موقع منزل حصين هو قلعة أجرا القديمة . ولست أدري إن كان أحد منكم قد شاهد هذا المكان أو رآه . ولكنها على كل حال غريبة البناء هائلة الحجم تستغرق مساحتها عدداً كبيراً من الأقدنة . ويلحق بالبناء القديم جناح حديث وسع كل الحامية والنساء والأطفال والحازن ، وبقى جانب منه خاوياً . وهذا الجناح على ضخامته ليس شيئاً مذكوراً بالقياس إلى البناء القديم الذي لا يجرؤ على دخوله أحد ، فهو ملك خالص للعقارب والأفاعي . تمرح في أهبانه الرحبية المقفرة ، ومحراته الملتوية المظلمة . بحيث يضل من يدخل فيه عن طريق الحروج . ومن أراد أن يدخله مستكشفاً فلا بد له من حمل المشاعل نهاراً »

« ومياه النهر ترتطم في جريانها بأسوار ذلك الجناح القديم من القلعة . فهو بهذا حسن طبيعي من تلك الجهة . أما الجوانب الأخرى فيها أبواب كثيرة يجب أن يقوم عليها حرس قوى . سواء في الجناح القديم أو الجديد . ولما كان عددنا محدوداً جداً لا يكاد يكفي لحدمة المدافع والأبراج ، فقد استحال علينا أن نخصص مجموعة لكل باب على حدة من تلك الأبواب التي لا حصر لها »

« فرتبنا هيئة مركزية للحراسة في وسط القلعة . على أن يقف على كل بوابة رجل أبيض واثنتان أو ثلاثة من الأهاليين للانداز بالخطر . ووقع على الاختيار لأقوم بالحراسة جانباً من الليل عند باب صغير منعزل في الجهة الغربية الجنوبية من البناء . وكان معي جنديان من السيخ يأتمران بأمرى . وكانت التعليمات تقضى عند شعوري بأي خطر أن أطلق بندقيتي ، كي يخف إلى الحرس الرئيسي . وكان هذا الحرس على بعد مائتي خطوة . ويفضله عن تبه كامل من الممرات والدهاليز . مما يجعل على الشك في وصولهم في الوقت المناسب إن حدث هجوم »

« على كل حال كنت غفوراً بقداني الصغيرة هذه ، نظراً لأنني جند على وجه الضرورة ، وأنا فضلا عن هذا أعرج ، وفضيت الليلتين الأولى والثانية »

١٣٣

سأهرأ مع البنجاين . وكانا طويلي القامة نحفي السحنة ، اسمهما محمد سنغ وعبد الله خان . وكلاهما من المقاتلين الحثيئين الذين شهدوا المارك من قبل . ويتقنان الكلام باللغة الانجليزية . بيد اني لم أستطع أن أستدرجهما للحديث كثيراً . إذ كانا يفضلان الوقوف بمزلة عن الرطانة بلتبعهما الخاصة طول الليل « أما أنا فكنت أفق خارج البوابة أتطلع الى التهر العريض السريع وإلى أنوار المدينة التي تنعكس على صفته الأخرى وأصغى الى ما يحمله إلى هواء الليل من قرع الطبول ، وضرب الدفوف ، وعواء الشائرين الذين أسكرهم الأفيون ، وكان الضابط يأتي مرة كل ساعتين ليبر بجميع المواقع وتباً كدمن التلم « وكانت ليلة حراستي الثالثة ليلة مطرة حالكة سبئة الجو . فكان الوقوف بالبوابة عملاً رهقاً . وحاولت أن أستدرج الجنديين الحديث معي جملة مرات ، ولكن من غير جدوى . وفي الثانية صباحاً مر الضابط حاملاً شرباً منعشاً ببد عن شيئاً من التاعب والسأم . وبعد انصرافه أخرجت بيتي لأتسلى بتدخينها ، ووضعت بندقيتي بجواري كي أشعل ثقاباً . وفي لمح البصر هجم على الجنديان ، واختطف أحدهما البندقية وسددها الى دماغى . أما الآخر فشهر خنجرأ على رقبتي وأقسم أن يغرسه في صدرى إن أتيت بحركة

« وأول خاطر مر بذهنى ان هذين الجنديين من عملاء الأعداء . وان هذه مقدمة لهجوم عام . ومعنى استيلاء الأعداء على هذه البوابة خلسة أن تسقط القلعة كلها . وماسيلقاء النساء والأطفال على أيديهم شيء مروع تهون في سبيله الحياة . وأقسم لهم أيتها السادة اني عندئذ فتحت فمى لأصرخ ، فصرخوا وحيدة أموت بعدها قد تنقذ حياة هؤلاء جميعاً « ويبدو ان صاحب الخنجر قرأ أفكارى . لأنه همس على الفور : — لا تصرخ . القلعة في أمان . لسنا من الأعداء . ولا يوجد ثوار على هذه الضفة

« ولست في صوته رنة الصدق . ومن جهة أخرى أدركت من نظراته اني إن رفعت صوتى مت لتوى . فلدت بالصمت الى أن أرى ماذا يريدان منى .

١٣٤

وتولى الكلام أطولها قامة وأهولها منظرأ ، وهو السمى عبد الله خان : — اسمع يا صاحب . إما أن تكون معنا منذ الآن ، وإما أن نسكتك الى الأبد . فالمسألة أكبر وأخطر من أن تكون موضوع تردد من جانبنا . واعلم انك يجب أن تكون معنا قلباً وقالباً وأن تقسم بذلك على صليب السحيين وإلا سيكون جسدك في هذه الليلة ملقى في الخندق . وسنعب بعد ذلك النهر وننضم الى اخواننا في جيش الثوار . ولا وسط بين هذين الحلين . فاختر لنفسك ما تشاء لها من حياة أو موت . ولا نستطيع أن نمنحك للتفكير والتقدير أكثر من ثلاث دقائق . لأن الوقت يمر بسرعة ولا بد من الانتهاء من كل شيء قبل نوبة التفتيش التالية

— وكيف أستطيع أن أقرر أو أختار وأتألم تذكرالى شيئاً عما تريدانه منى ؟ ومع هذا فأنى أصارحكاً منذ الآن ، انه إذا كان الأمر يمس أمان القلعة من قريب أو بعيد فلن أوافق عليه ، ومن الخير لك أن تعتمد هذا الخنجر في صدرى وأنا نمتون

— ليس في الأمر شيء ضد أمان القلعة أو سلامتها . وكل ما تريده منك هو أن تفعل شيئاً من قبيل ما يفعله مواطنوك جميعاً كما جاؤوا الى بلادنا . تريد منك بالاختصار أن تصبح غنياً . فان واقمت على أن تكون واحداً منا في هذه الليلة ، فنقسم لك على هذا الخنجر ثلاثاً أن نعطيك نصيبك العادل من النعمة ، وهو ربع الكنز

— ولكن ما هو هذا الكنز ؟ إنى مستعد جداً أن أكون غنياً الى أى حد تشاؤون ، وليس عليكم إلا أن تدلوني على ما أصنع في ذلك السبيل — إذن يجب أن تقسم أولاً

— هاتوا القسم ...

— أقسم بعظام أيبك ، وبشرف أمك ، وصليب مسيحتك ، ألا ترفع بدأ ولا تتبس بكمأة ضدنا ، لا الآن ولا فيما بعد

— أقسم بهذا كله بشرط ألا يكون في ذلك تهديد لسلامة القلعة

١٣٥

— وأنا وصدىقي تقسم أن نحظى بربع الكنز الذى سوف يقسم بيننا نحن الاربعة

— نحن الأربعة ؟ نحن ثلاثة فقط

— هناك دوست أكبر . ونستطيع أن نخبرك بتفاصيل القصة ونحن في انتظار وصولها . وعليك أن تقف عند البوابة يا محمد سنغ وتندرننا بقدمهما . إن المسألة يا صاحب خطيرة جداً . ولولا اننا ثقي بيمين الفرنجة لما بحث لك بالسر . أما وقد أقسمت فقد صرت واحداً منا وأصبح من حرك أن تعرف جميع الحفايا

٤٧

الفصل الثالث والعشرون

المهراجا

« وعندئذ أعتمد عبد الله خان خنجره الرهيب وأنشأ يحدثنى بالسر الذى أطلق عليه بعد ذلك اسم سر الأربعة . وهذا هو السبب فى توقيعى على كل شيء بعلامة « ٤ »

— هناك مهراجا فى الولايات الشمالية ثروته من الجواهر والأموال كبيرة جداً وإن كانت أراضيه قليلة المساحة . فقد ورث عن والده الكثير . وادخر الكثير بفضل شجوه وبخله على نفسه وذويه . فلما قامت الثورة هدها مكره الحبيث أن يأكل على المائدتين ويكون على صلوات خفية بالفرقيين المتحارين . وأخيراً بدا له أن دولة الفرنجة آذنت بالزوال . فوضع خطة يضمن بها أن تصف أمواله على الأقل يجب أن يبقى له أياً كان الفريق الفأز . فاستبقى أمواله من الذهب والفضة فى أقبية قصره هناك . أما الأحجار الكريمة واللآلىء النادرة فوضعها فى صندوق ضخم من الحديد وعهد بها الى خادم موثوق به تنكر فى زى التجار . وهو الآن فى طريقه الى قلعة أجرا حيث يقم الى أن تنتهى الحرب ويسود السلام . فاذا انتصر الثوار فاز بما له من الذهب والفضة . وإذا انتصر الفرنجة بقيت له جواهره . وبعد أن قام بذلك التقسيم الماكر انضم جهاراً للثوار نظراً لقوتهم على حدود إمارته . فهو رجل سائن ، وأمواله حل لأولئك الذين أخلصوا للخبز والملح . وهذا التاجر المزعوم موجود الآن فى مدينة أجرا على الضفة الأخرى . ومعه دليل سبأى به الى القلعة هو أخى فى الرضاع دوست أكبر . وقد وعد أن يأتي به هذه الليلة الى هذه البوابة . وبعد قليل سيكونان هنا حيث يجدان محمد سنغ ويجهدانى فى الانتظار . ولما كان هذا

١٣٧

١٣٦

المكان منعزلاً فلن يعرف أحد أن التاجر أحمد قد اختفى من عداد الأحياء .
وبعد هذا تقسم كثر الهراجا بيننا نحن الأربعة . فإذا تقول في ذلك يا صاحب ؟
« وقد نشأت أيها السادة في الرفيع الإنجليزي حيث حياة الانسان مقدسة .
ولكن الأمر يختلف جداً حين يكون الإنجليزي منا في الشرق الأقصى ،
والأرض تسيل بالدماء والسماء معقودة بدخان الحرائق ليل نهار . فسواء
عاش التاجر أحمد أم مات مسألة لا وزن لها عندي . وتخلت ما يمكن أن
أصنعه بكل هذه الثروة حين أعود سالماً إلى مسقط رأسي . وكيف أن أفريائي
الذين تبرأوا مني سينظرون إلى بالدهشة والاعجاب . وكان هذا عاملاً حاسماً في
الموقف . ويبدو أن عبد الله خان لم يرددي أو ما ظنه تردداً ، فأدلى بحجة
أخرى لاقتناعي

— تذكر يا صاحب أنه إن تركنا هذا التاجر أحمد يدخل بالكثير لدى
القائد ، فيستترع هذا القائد أي حجة وأمر بشنقه أو ريمه بالرصاصة . ثم
تصادر حكومتكم جواهره كعادتها في مثل هذه المناسبات . وبذلك تضع
الثروة الطائلة على الجميع ويموت الرجل على كل حال ولكن من غير أن يستفيد
بموته أحد . وما دمنا نحن سنتكفل به ، فمن الخير أن نستولى نحن على
المجوهرات من أن تستولى عليها حكومة ليست بحاجة إليها . ونصيب كل واحد
منا سيكون كافياً لجملة من كبار الأغنياء والرؤساء مدى الحياة . ولا يمكن أن
يعلم أحد شيئاً عما حدث . لأننا هنا بمعزل عن بقية الحامية . والآن يجب
عليك يا صاحب أن تقرر فوراً هل أنت منا أو علينا »
— بل معك قلباً وقالياً

— اتفقا . وهالك بنديكت . لكي تعلم أننا نثق بك . وأن عهدونا
كمهودكم شيء مقدس . وليس علينا الآن سوى انتظار القادمين
— وهل أخوك دوست أكبر يعرف ما ستفعله ؟
— انه هو صاحب الفكرة وواضع الخطة . والآن هيا نخرج لنشترك مع
محمد سنغ في المراقبة . ولكي نخبره بالاتفاق
« وكان المطر يتساقط بغزارة . والسحب الثقيلة تغطي صفحة السماء بحيث
تتعدر الرؤية أكثر من بضع خطوات . وكان هناك خندق عميق أمام بوابتنا .

١٣٨

ولكن هذا الخندق كان جافاً في بعض مواضعه . بحيث يمكن اجتيازه . وبدا
لي غريباً أن تقف هناك أنا وهذين البنجاليين في انتظار رجل مسلم يسير إلى
حفته على قدميه

« وجأةً لحت ضوء فانوس في الناحية الأخرى من الخندق ، ثم اختفى
الضوء وراء الأكوام المتناثرة من التراب . ولم يلبث أن ظهر ثانية وهو يتجه
نحونا ببطء . ووجدت نفسي أصبح بفرح شديد :

— ها هما أخيراً

« فهمس عبد الله خان في أذني قائلاً :

— عليك يا صاحب أن تصيح به كالعادة : قف ، من أنت ا وعليك
ألا تدع الخوف يتسرب إلى نفسه . ثم ابعت بنا معه إلى الداخل لنوصله إلى
القائد . وتبقى أنت هنا للحراسة إلى أن تم نحن العملية بطريقتنا
« وجعل الضوء يهتز قدماً تارة ومتراجماً تارة أخرى ، ثم رأيت الشبحين
يخوضان الخندق ويتسلقان جانبه متجهين نحو البوابة . وعندئذ صحت
بصوت أجش :

— من هناك ؟

« فأجاني صوت علمت فيما بعد أنه صوت دوست أكبر :

— أصدقاء !

« فأخرجت الفانوس وألقيت عليهما الضوء . فرأيت أولاً رجلاً من
السيخ له لحية سوداء تصل إلى بطنه . ولعله أطول رجل رأيت في حياتي .
أما الرجل الآخر فكان قصيراً بدينياً يرتدي عمامة صفراء كبيرة وفي يده شال
ملفوف فيه شيء . وبدا عليه الارتعاد من الخوف . فهو يتلفت يمنة ويساراً
كما يتلفت القار حين يجازف بالخروج من جحره . فأخذتني الشفقة بهذا
المسكين ولم يطاوعني قلبي على تمثله مقتولاً غيلة بيد ثلاثة من العالقة . بيد أن
فكرة التراء والكذب ردت إلى قلبي صلابته وجموده . ويؤسفني أن أقول إنه
ما أن رأى وجهي الأبيض حتى أطلق صيحة فرح وأسرع نحوي كالمستجير
وهو يغمغم :

١٣٩

— سألتك الحماية يا صاحب ! حمايتك للتاجر المسكين أحمد . فقد عبرت
راجا پوتانا لألنيس الأمان في قلعة أجرا . كم ضربوني وسلبوني لأنني كنت صديق
الفرنجية . ليلة مباركة هي هذه الليلة التي وصلت فيها إلى الأمان بين يديك أنا
وممتلكاتي الخفيفة
— وما هذا الذي في تلك المرة ؟

— صندوق من الحديد يأسدي فيه شيء من التذكارات العائلية التي
ليست لها قيمة عند أحد سواي ، ولكني ما كنت لأفرض فيها . ومع هذا
فلست معدماً ، ويمكنني أن أجزل لك العطاء يا صاحب ، ولقائدك أيضاً إذا
كفلك لي الأمان

« ولم آمن جانب قلبي في الاستمرار في ذلك الحديث مع الرجل . لأنني
كنا نظرت إلى وجهه السمين الذعور ، صعب على أن أتصوره مقتولاً بغير
ذنب . فرأيت من الخير أن أخصر هذا الحديث قتلًا للجنديين :

— خذاه إلى القائد

« فأخذه أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . أما العملاق دوست أكبر
فشي في الحلف . وابتلع اللوكب الصغير ظلام القلعة في الداخل . ووقفت أنا
عند البوابة ومعني الفانوس

« وأصغيت في سكون الليل إلى خطواتهم المنتظمة في الدهاليز الخالية .
وجأةً توقفت الحطوات ، وسمعت أصواتاً ، ومناوشة خافتة وضربات مكتومة .
وبعد لحظة سمعت أقداماً تندفع بسرعة في اتجاهي ، وصوت لهما رجل يجري
في المقدمة . تحولت فانوسى إلى الداخل . فاذا بالرجل البدين يسابق الريح ،
والدم يسيل على وجهه ، وفي أعقابهِ دوست أكبر كاسراً كالنمر وفي يده خنجر
يغطف الأبصار

« ولم أر في حياتي رجلاً يجري بسرعة هذا التاجر البدين . لقد انقلب
غزلاً أمام خطر اللوت . ورأيت المسافة بينه وبين السيخي العملاق تزداد .
بحيث لو تجاوزت إلى الهواء لطلق لنجا بحياته

١٤٠



العهد

« لن أحاول أن أتمس لنفسى المآذير . بل سأمضى في قصتي من غير تعليق . لقد حملناه أنا ودوست أكبر وعبد الله خان . وتركنا محمد سنغ محروس البوابة . ودخلنا بالجملة إلى المكان الذي كان السيخيون الثلاثة قد أعدوه من قبل في جدار ميميك في أحد الأبهام البعيدة الحالية ووضعنا فوقه الحجارة والتراب في كومة تشبه سائر الكومات في القلعة المتداعية ثم عدنا إلى الكنز فوجدناه حيث سقط منه عند أول هجوم . وهو هذا الصندوق بعينه الذي أملككم الآن . وكان الفتح معلقاً مخيظ من الحرير إلى اليد المزخرفة التي في الغطاء »

« وفتحنا الصندوق فسقط ضوء الفانوس على مجموعة من الجواهر تشبه ما سمعنا عنه في أقاصيص ألف ليلة ، حتى لقد غشيت أبصارنا . وبعد أن شبعنا عيوننا من النظر أفرغنا كل ما في الصندوق وكتبنا به قائمة مفصلة . فإذا هناك ١٤٣ ماسة كبيرة من أعلى درجة . منها واحدة اسمها « كبير اللؤلؤ » ويقال إنها ثاني ماسة في العالم من حيث الحجم . وهناك أيضاً ٩٧ زمردة كبيرة نفيسة جداً و ١٧٠ قطعة عقيق . و ١١٠ من حجر السفير . وأنواع أخرى لا حصر لها من التركواز وعين القط والبرليس وغير ذلك من الاحجار الكريمة التي لا تخطر ببال . فضلاً عن أكثر من ثلاثمائة لؤلؤة كبيرة الحجم منها ١٢ على شكل مسبحة في سلك من الذهب . وبهذه المناسبة أقول إن تلك المسبحة أخذت من الصندوق ولم أجدها مع الجواهر حين أقيمتها في النهر

« وبعد أن فرغنا من احصاء الكنز أعدنا كل شيء إلى الصندوق وحملناه إلى البوابة ليراه محمد سنغ . وبعد ذلك جددنا العهد أن نقف متضامنين في الحفاظة على الكنز وصيانة سره »

« ولم تكن هناك جدوى من اقتسامه فوراً . لأن وجود مثل هذه الجواهر النفيسة معناه حري أن يثير الشبهات . ولم تكن في التكنات دواليب أو غرف منعزلة تسمح باخفاء مثل تلك النفائس . لهذا أقمنا الصندوق ودفناه داخل أحد الجدران الداخلية بالقرب من المكان الذي دفنا فيه التاجر أحمد وقرت في اليوم التالي برسم أربع خرائط ، واحدة لكل واحد منا ، ووضعت علامة « ٤ » على كل منها . وتعاهدنا أن ينبوب أى واحد منا عن الأربعة متضامنين كي لا يتفرد أحد بالفتحة . ولم أحض هذا العهد مطلقاً »

« وسرعان ما تغلبت القوات الحكومية على الثورة . واستشرنا باستتباب الأمن ورحنا نحن الأربعة نعد الخطة لانزعاز الكنز من مكانه والتسلل به بعيداً حيث نقسمه . وإذا بنا فاجأاً بالقبض علينا واتهامنا بقتل أحمد »

« وظلنا في بادئ الأمر أن هناك خيانة . ثم اتضح أن المهرابا صاحب الجواهر كان قد أرسل جاسوساً يتعقب أحمد . بشرط ألا يدعه يشعر به وفي ليلة الحادث شاهده وهو يدخل من البوابة . وفي اليوم التالي جاء النهار والتجأ إلى القلعة . ولكن لم يعثر على أثر لأحمد في داخلها . فشك في الأمر وتحدث بشكوكه إلى أحد الضباط الذي رفع الأمر إلى القائد . فأمر بإجراء تفتيش دقيق انتهى بالشور على الجثة . وهكذا ألقى القبض علينا في الساعة التي حسبنا فيها أننا وصلنا إلى تحقيق أمننا »

« ووفينا نحن الأربعة بالعهد ، فلم يعترف أحدنا بمكان الجواهر أو بمجرد وجودها . ذلك أن المهرابا كان قد طرد باعتباره خائناً للحكومة فلم يهم أحد بمسألة ممتلكاته . أما جريمة القتل فلها لون آخر . وقضت المحكمة على السيخ الثلاثة بالأشغال الشاقة المؤبدة . أما أنا باعتباري القائد فحُكم على بالاعدام . ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة »

« وهكذا وجدنا نحن الأربعة أنفسنا في موقف غريب . فأقدامنا مكبلة بالأغلال ولا أمل في إطلاق سراحنا . ومع هذا فنحن نتقاسم سرا يمكن أن يجعل كل واحد منا رب قصر منيف . وكان هذا في حد ذاته كافياً كي يأكل العيظ قلبنا كما تعين علينا أن نؤدى النتيجة لكل صعلوك من رجال السجن وأن نأكل الأرز السلوك من غير لحم . حتى لقد أوشكت أن أجن لولا ما آتت به من عناد »

« وبعد فترة من الزمن نقلت من سجن مدراس إلى جزيرة بلير من مجموعة جزر الأندمان . وقل بين نزل هذا السجن الأخير أن يوجد رجل أبيض ، فانهزت هذه الفرصة وأحسنيت السلوك حتى قربني الرؤساء وميزوني بكوني يتبع على قمة تل وأغفيت من معظم الأعمال الشاقة »

« وكانت هذه المنطقة معرضة لهجمات الأهالي من الأقزام آكلة لحوم البشر الذين يطلقون الشظايا السامة على كل رجل أبيض كلما سنحت لهم الفرصة . لهذا كنا نأخذ حذرنا باستمرار »

« وكان العمل الموكول إلى هو مساعدة جراح السجن في إعداد الأدوية فتعلمت منه الكثير من دقائق فنه بالقرين . وجعلت أربص الفرص للفرار ولكن هذه الجزائر تبعد مئات الأميال عن أقرب أرض . والبحر من حولها ساكن لاربع فيه في معظم الأيام . فالهرب شاق جداً »

« وكان الجراح هو الدكتور سوميرتون ، وكان يمتاز بالطرف والركة وسرعة الخاطر . فكان الضباط الثبان يجتمعون عنده في مساء اللعب الورق وكانت الصيدلية التي أشتغل فيها بتحضير الأدوية ملاصقة لحجرة الجلوس وبينهما نافذة صغيرة . فكنت حين يشتد سأمي في بعض الليالي أطيء النور في حجرة العقاقير وأقف في تلك الكوة أصغى لأحاديثهم وأراقب اللعب . وكان هذا يلذ لي كثيراً لاني من هواة ألعاب الورق »

« وكان على رأسي تلك المجموعة الميجور شولتو والكابتن مورستان والملازم براون ، فضلاً عن بعض الاداريين من المدنيين . ولفت نظري بمرور

الزمن ظاهرة محجبة هي أن العسكريين يخسرون دائماً ، وأن المدنيين يكسبون دائماً . ولم يكن هناك غش ولكن هذا هو ما كان يحدث . لأن هؤلاء المدنيين قضوا خدمتهم كلها في جزائر الأندمان . فلم تكن لديهم مشغلة ليل نهار الا لعب الورق حتى حدقوه . وأصبح كل واحد منهم يعرف طريقة الآخر في اللعب . وهكذا وقع العسكريون فريسة في أيديهم »

« وكان الميجور شولتو أكثر الجميع خسارة . فبعد أن فرغ ما في جعبته من الذهب والفضة وأوراق النقد بدأ يبحر على نفسه الصكوك بمبالغ ضخمة وأصبح يقضى النهار بطوله يتجول نائراً ، وأفرط في احتساء الخمر »

« وفي ذات ليلة كانت خسارته أكثر من المعتاد . وكنت جالساً في كوخى المنزلة عندما رأيته هو والكابتن مورستان عائدتين إلى مقرها . وكانا صديقين حميمين متلازمين . وكان للميجور ساشا كمدته على خسارته وسمعته يقول :
— انتهى كل شيء يا مورستان . سأعلن إفلاسي . لقد قضى على هراء أيها الصديق لا يجب أن تباأس ... »

« ولم أسمع بعدها شيئاً لأنهما كانا قد ابتعدا . وبعد يومين رأيت ميجور شولتو يتمشى على الشاطئ ، فانهزت الفرصة وتحدثت إليه :
— أحب أن أسألك النصيح في مسألة مهمة يا ميجور . من هو الشخص الذي يبنى أن تسله كنزاً مخبوءاً في مكان ما ؟ فأنا أعلم مكان كنز يقدر بنصف مليون ذهباً . ولما كنت لا أستطيع أن أستفيد منه شخصياً ، خطر لي أن خير ما أصنعه أن أقدمه للسلطات المختصة ، على أمل أن يخفف هذا من مدة عقوبتي »

« فخدجني الميجور شولتو بنظرة فاحصة ليتأكد من أنني جاد وقال :
— أتقول نصف مليون يا ميجور ؟ »

— نعم يا سيدي على الأقل . من الجواهرات واللاآلىء . مدفونة في مكان أعرفه . والغريب في الأمر ان صاحبها الأصلي محروم من حقوقه المدنية ، فهي ملك لأول شخص يضع يده عليها فعلاً
— هذه مسألة تحتاج إلى تفكير . فأخبرني بجميع تفاصيلها »

« فأخبرته القصة مع تغير في الأسماء والأمكنة لكي أمنعه من الوصول
بغمره الى الكنز . فلما انتهيت وقفت مبهوتا . فأدرت ان هناك صراعا يدور
في أعماق نفسه . فتركته في صمته الى أن قال :

— هذه مسألة مهمة جداً يا سمول . وينبغي ألا تخبر أي انسان بها .
وسأفكر أنا ثم ألتقي بك فيما بعد

« وبعد ليلتين جاء الى كوخى عند منتصف الليل ومعه الكابتن مورستان
بعملان فانوساً ثم طلب مني أن أعيد القصة على الكابتن مورستان ، فأعدتها
كما رويتها له أولاً . وبعد ذلك قال الميجور :

— لقد تشاورت في الأمر مع صديقي وقر رأينا على ان الحكومة لاشأن
لها بهذا الموضوع . لأنها مسألة شخصية . وما دمت تعرف مكان الكنز فهو
ملكك بحكم القانون . ومن حقلك أن تتصرف فيه كما تريد . ولهذا فنحن
نسألك بكل وضوح وصراحة ما هو الثمن الذي تريده لسرك ؟

— هناك ثمن واحد لا يطلب سواء من كان في مثل ظروفي . وهو الحرية .
أريد أن تساعدني وتساعد رفاقي الثلاثة في الهرب . وبعد ذلك نعتبر كما شركاء
ونطيعكم الخمس تقسما معاً فيما بينكما

— الخمس فقط ؟ هذا ليس مغرباً

— الخمس يزيد على مائة ألف جنيه

— ولكن كيف يمكن أن نعمل على إطلاق سراحكم ؟ أنت تعلم تماماً انك
تطلب منا المستحيل يا سمول ؟

— لا استحالة هناك . فقد فكرت في الأمر بجميع تفاصيله ووجدت ان
الحائل الوحيد دون فرارنا هو اننا لئملك قارباً مناسباً للرحلة في هذا البحر
ولا مؤونة تكفيها . وتوجد في كلكتا أو مدراس مخوت تؤدي هذا الغرض
جيداً . فلو تمكننا من إحضار يخت لاستطعنا أن نستقله تحت جنح الليل . فاذا
أزلمونا بعدها فوق أي بقعة من الشاطئ ، الهندي سنعتبر أننا قتبنا بكل نصيبكما
من الاتفاقية

— لو كانت المسألة تتعلق بشخص واحد لا أربعة ...
— الجميع أو لا أحد . فقد أقسمنا نحن الأربعة على التضامن
— تعجبني فيك مزية الاخلاص ولهذا سأفكر في مشروعك . ولكن
يجب أن أرى الكنز أولاً لأننا أكد
— لا أخبرك بمكانه إلا بعد موافقة رفاقي الثلاثة . فاترك لي فرصة كي
أستشيرهم



الفصل الخامس والعشرون

الخيانة

« وتم الاتفاق على الحطة في مقابلة تالية حضرها رفاقي الثلاثة محمد سنغ
وعبد الله خان ودوست أكبر ، وبعد مناقشات طويلة وصلنا الى قرار وهو
تزويد كل من الضابطين بخريطة تبين مكان الكنز في قلعة أجرا القديمة . وكان
على الميجور شولتو أن يطالب أجازة ثم يذهب الى الهند ليتحقق من صدق
روايته . فاذا وجد الصندوق تركه حيث هو وأرسل يخته صغيراً عليه مؤونة
كافية بحيث يصل في ليلة معينة . ويعود الميجور بعدها الى عمله . وعندئذ
يطلب الكابتن مورستان أجازة ليلتي بنا في أجرا . وهناك تقسم الكنز بصفة
نهائية ويتسلم الكابتن مورستان نصيبه ونصيب الميجور . وأقسمنا على هذا
الاتفاق بأغلظ الايمان التي يمكن أن تحظر بالعقل

« وقضيت تلك الليلة ساهراً مكباً على الورق والحبر . وفي الصباح كانت
الحريظتان معدتين وموقعين بعلامه الأربعة . وهم عبد الله خان ودوست أكبر
ومحمد سنغ وأنا

« وقام الميجور شولتو بأجازته الى الهند . ولبثنا ننتظر عشا وصوله أو
وصول اليخت الوعود . وأخيراً أطلعني الكابتن مورستان على اسم الميجور في
بعض الصحف التي تنشر قوائم المسافرين على البواخر الى إنجلترا . وفي نفس
الصحيفة خبر وفاة عم له ترك له ثروة كبيرة فاستقال من الجيش الهندي ليتفرغ
لإدارة أملاكه

« وبعد برهة وجيزة قام مورستان بالأجازة وذهب الى قلعة أجرا حيث

تأكد بنفسه أن الكنز قد اختفي . سرقة النذل الذي أصبح غنياً بالوراثة من
غير حاجة الى سرقة ، ومن غير أن يكلف نفسه الوفاء بأي شرط من الشروط
التي تعاهدنا عليها

« ومنذ ذلك اليوم وأنا لا أعيش إلا للانتقام الذي استولت فكرته على
نفسى . فلم أعد أعبأ بالقانون ولا بالمشقة . وإنما كل همى أن
أتمكن من الفرار كي أقتني أثر شولتو وأضع يدي على رقبته فلا أتركها إلا وهو
جثة هامدة . لقد أصبح كنز أجرا في حد ذاته شيئاً تافهاً بجانب رغبتى في
الانتقام من شولتو

« وكنت كما ذكرت لكم قد تعلمت شيئاً من الفن الطبي بحكم عملي في السجن
وفي ذات يوم والدكتور سومرتون ملازم الفراش من الحمى ، قبض جماعة
من المساجين على قزم من الأهالي التوحشين في الغابة . وكان مريضاً جداً
فاتفرد بنفسه على عادة عشيرته ليموت حتى لا يأكلوا لحمه فتوليت أمره بالرغم
من بشاعة خلقته . وبعد شهرين كان قد استرد صحته واستطاع أن يمشى على
قدميه . وكان هذا كافياً كي يتعلق بي فأمسى لا يكاد يفارقني أو يريح كوخى
وتعلمت منه طرفاً من لغته القومية ، فزاد ذلك من تعلقه بي

« واتضح أن تونجا ملاح بارع شأن سكان الجزر التوحشين . كما اتضح
أنه يملك قارباً كبيراً من قوارب تلك الجهات . وعلى ضوء تلك الظروف رأيت
فرصتي في الهرب سائحة فقاخته في الأمر . وكان عليه أن يأتي بزورقه في ليلة
معينة الى مرفأ قديم مهجور لا يحرسه أحد ، ومن هناك يأخذنى . وأمرته
أن يستعد بوضع قرب من الماء وكية من جوز الهند والبطاطا وغير ذلك من
ثمار الاقليم

« وكان تونجا مثالا للاخلاص والوفاء . فنفذ ما طلبته منه بحذافيره
وتوجهت في الساعة العينة الى المكان المعلوم وإذا بي أجد هناك حارساً وطنياً
كان يكرهنى جداً ولا يفلت فرصة لأهاننى . فرأيت الفرصة سائحة كي أنتقم
منه لأن القدر وضعه في طريقي في تلك اللحظة . وكان ظهره الى جهتي

وبندقته على كتفه . وتلفت حولي أبحث عن حجر أهشم به رأسه فلم أجد شيئاً . وعندئذ خطرت لي فكرة غريبة . جلست على الأرض في الظلام وحللت سيور ساقى الحشبية . وفي ثلاث وثبات كنت فوق رأسه . وأسرع يرفع بندقته . ولكني كنت أسرع منه فضربته على يافوخه بكل قوتي فطار نصف جمجمته . وتستطيعون أن تروا أثر الضربة ظاهراً في ساقى الحشبية « ونهضت ممسكاً بساقى وجعلت أحجل حتى ركبت الزورق وهناك أعدت سلاحى القاتل الى موضعه من جسمى . وفي مدى ساعة كان تونجا يخوض بنا عرض البحر . وكان قد أتى في الزورق بكل ممتلكاته ، وأهمها أسلحته القومية وأصنام آلهته . فاتخذت من خصير مصنوع من ألياف جوز الهند شرعاً وظلنا نبحر البحر عشرة أيام . وفي اليوم الحادى عشر التقطنا سفينة بضائع متوجهة من سنغافورة الى جدة . وكانت تحمل مع البضائع قرأ من حجج الملايو أحسنوا معاملتنا وأكرمونا

« وظلت صروف الأيام تتقاذفنا . وكما حاولنا أن نصل الى لندن أهدمتنا عنها . ولكنى لم أكف عن التفكير في شولتو بالنهار والحلم به في الليل ، الى أن شاءت الظروف منذ نحو أربع سنوات أن تأتى الى انجلترا ، فشرعت في الحال أبحث عن محل إقامة شولتو . ولم أجد في ذلك صعوبة . ولكنى أردت أن أتحقق هل الكنز في حوزته أم لا

« واستطعت أن أتخذ لي جاسوساً من خدمه . ولكنى لن أشئ باسمه . وهو الذى أنبأني أن الجواهر ما زالت تحت يده . وحاولت أن أصل الى عدوى بيد أنه كان يقيم حول نفسه حراسة شديدة من المصارعين المحترفين « وذات يوم أنبأني جاسوس بأنه على فراش الموت . فأسرعت الى الحديقة من السور الخلقى ، وأنا أكاد أجن لافلاته ووفاته من غير يدى . فلما نظرت من النافذة رأيت على فراشه وولده عن جانبيه . وكنت حرياً أن أهاجم على الثلاثة فأقتلهم إن اقتضى الأمر ، لولا أنى شاهدت فكه يسقط ، فأدركت أنه مات وانقضى الأمر



« وسجلت حقدى عليه بكتابة علامة « ٤ » على ورقة وضعتها فوق صدره بدبوس

« وتسالت في تلك الليلة بالذات الى حجرته ، وفتشت في جميع أوراقه عسى أن أعثر على مذكرة تهدينى الى المكان الذى أخفى فيه جواهرنا . ولكنى لم أعثر على شيء . وفي ثورة غضبى سجلت حقدى عليه بكتابة علامة « ٤ » على ورقة وضعتها فوق صدره بدبوس ، كي أتعزى على الأقل بأنه لن ينزل القبر من غير تذكاري يسجل حقدنا ولعننا

« وجعلت أتكسب بعرض ألعاب تونجا في الموالد والأسواق حيث يأكل أمام الناس اللحم النيء ويرقص رصة الحرب . فكففت لنا هذه الألعاب قوتنا وظللت على اتصال بوندبشيري لودج . وانقضت سنوات وأنا لا أسمع سوى أنهم يتقبون في كل مكان عن الكنز من غير نتيجة

« وأخيراً حلت اللحظة التى كنا نتظرها طويلاً . فقد عثر برنلوميو شولتو على الكنز في صندرية سرية فوق معمله الكهاوى . فذهبت على الفور لألقى نظرة . وسرعان ما تبين لي ان ساقى الحشبية لا يمكن أن تسمع لي بتسلق ذلك العلو الشاهق

« وعلمت من مصدرى الخاص بوجود باب سرى في سقف الصندرية كما عرفت الساعة التى يتناول فيها برنلوميو شولتو عشاءه بانتظام . فبدأ لي ان المهمة سهلة إن استعنت بتونجا . فأتيت به معى وربطت حبلاً طويلاً حول خاصرته . ولما كان تونجا يحسن التسلق كالقطط . فسرعان ما كان فوق السقف . ثم دخل من الباب المسحور

« وشاء سوء الطالع أن يكون برنلوميو شولتو في معمله ولم ينزل تلك الليلة ليتمشى على خلاف عاده . وظن تونجا انه أدى لي خدمة جزيلة بقتله بشظيته السمومة . لأنى وجدته رقص مزهواً كالطاووس حول فرسته حين دلى لي الجبل وتسقلت الى النافذة العليا . وكانت دهشته كبيرة حين هجمت عليه لأضربه بطرف الجبل وأنا العنه

« وأخذت صندوق الكنز فدلته بالحبل . ثم انزلت نازلاً بعد أن تركت علامة الأربعة على ورقة فوق المائدة دلالة على ان الجواهر عادت أخيراً الى أحق الناس بها

« وجذب تونجا الحبل بعد ذلك ثم أغلق النافذة وخرج من الطريق الذى جاء منه . ولكنه أسقط وهو يتراجع جبة قذائفه السمومة

« وكنت قبل ذلك قد سمعت أحد البحارة يشيد بالسرعة الفائقة التى يصل اليها اللنش أورورا الذى يملكه مردخاى سمث . فخطر لي أن أتخذ هذا اللنش وسيلة مأمونة للفرار . فاتصلت بمردخاى سمث وافقت معه على أن أعطيه مبلغاً كبيراً إذا تمكن من توصيلنا الى باخرتنا

« وكان بطبيعة الحال يدرك ان وراءنا سراً . ولكنه لم يكن يدري ماهو . وإني أقرر ذلك قياماً بواجب الأمانة حتى لا يضار الرجل من غير ذنب . ولعنى بهذا أوضحت لكم مدى براءتى من دم برنلوميو شولتو . كما أوضحت لكم أى خيانة غادرة أنزلها بي والده اللجور «

وساد الصمت لحظة بعد أن ختم جوناثان سمول قصة حياته ، وتجرع بقية كأسه . ثم سأله هولمز :

— كل هذا مطابق لما استنتجته من قبل . ولكنى كنت أحسب أن تونجا قد جمع قذائفه . فمن أين أتى بالقذيفة التى حاول أن يصينا بها ؟

— كانت هذه هى الأخيرة . وكانت موجودة بالفعل في مزماره الجهنمى . هل هناك ياسيدى استفسار آخر ؟

— كلا وشكرآ لك

وعندئذ قال أثنى جونس :

— أظن أنه حان الوقت كي نأخذ أسيرنا ونصرف . وإني شاكر لك جهودك التى أدوين لها بالنتيجة التى وصلنا اليها . وأنت تعلم طبعاً أننا سنحتاج لمساعدتك فى المحكمة

وأراد جوناثان سمول أن يتأخر الى أن يمر جونس قبله من الباب ، إلا ان جونس ضربه على كتفه وقال ضاحكاً :

— بل يمر أنت قبلى . لأنى لأحسب أن أترك لك الفرصة كي تهشم دماغى

□

جلسنا ندخن ساعة تلك الليلة ونحن صامتين . ثم قلت لهولمز :
— أخشى ياهولمز ان هذه آخر قضية أتعلم فيها على يدك مهاجك الفذ
في تحقيق الجنايات
— ولماذا ؟

— لأن الآنسة مورستان شرفتي بقبولي زوجاً لها عما قريب
فتأوه باشميراز وقال :

— كنت أخشى أن يقع شيء من هذا القبيل . أنت تعرف صراحتي
ياوطنس . ولا تؤاخذني إذا قلت لك اني لا أستطيع أن أهنتك !
فتأملت وقلت له بامتعاض :

— هل لديك سبب خاص للاعتراض على اختياري ؟

— كلا على الاطلاق . فأرى أنها من أشد من رأيت من الشابات فتنة .
وهي ذات ذكاء وفطنة بدليل احتفاظها بخريطة كنز أجرا ، من دون سائر
أوراق أبيها . ولكن الحب شيء عاطفي . وكل ماهو عاطفي فهو مناهض للعقل .
وأنا رجل يضع العقل فوق كل اعتبار . ولهذا ان أزواج أنا شخصياً حتى لا
يؤثر زواجي على استقامة تفكيري
فضحكت وقلت له :

— أراهنك ان عقلي سوف يخرج من هذه الحنة سليماً . ولكي أراك
يبدو عليك الاعياء ياهولمز

— إنهرد الفعل بدأ ينتابني . وأعتقد اني سأظل خائر القوى مدة أسبوع
كامل على الأقل

الحقيقة انك ترهق نفسك كثيراً في عمالك هذا . والفضل في ذلك
النصر يرجع اليك وحدك

— ليس تماماً . لا تنس ان لجوناثان سمول شريكاً من أهل البيت لم

يصرح باسمه ولكنه لا يمكن أن يكون سوى الساقى لال راو . وهذا الشخص

قبض عليه جونس منذ البداية
— ولكنه انقرد رسمياً وفي الصحف بأكاليل النصر التي زرعتها أنت .
وهذا ظلم فادح . لأن المعركة كانت عنيفة وكل منا خرج منها بفنيعة . فهذا
جونس قد خرج منها بحسن السمعة وربما بترقية . وأنا شخصياً خرجت بشيء
لا يقدر بشمن وزوجة جميلة ذكية محبة . وأنت أيها السكين ما الذي بقي لك
من أسلاب المعركة ؟

قهض وكشف عن ذراعه وتناول الحقن ثم قال :
— بقيت لي زجاجة الكوكاين

